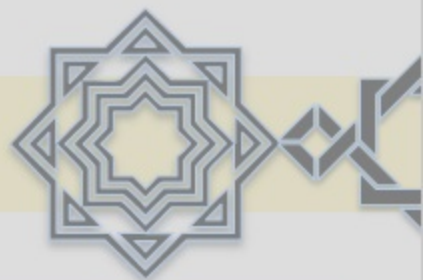


منطقة الباحة (بلاد غامد وزهران)

كما سمعت عنها وشاهدتها

(١١/٢٩ - ١٤٣٣/١٢/٩ هـ الموافق ١٥ - ٢٥/١٠/٢٠١٢ م) (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس



(*) دراسة منشورة في كتاب: منطقة الباحة: دراسات، وإضافات، وتعليقات (ق١ - ق١٥ هـ / ق٧ - ق٢١ م)، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩ م)، (الجزء الأول)، ص ص ٢٠٥ - ٢٨٦.

الدراسة الثامنة

منطقة الباحة (غامد وزهران) كما سمعت عنها وشاهدتها

(٢٠١٢/١٠/٢٥-١٥/١٤٣٣/١٢/٩-١١/٢٩)

بقلم: أ.د. غيثان بن علي بن جريس (*)

(*) نشرت هذه الدراسة في كتاب:

القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير)، ط ١

(١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م) - (الجزء الخامس)

الرياض : مطابع الحميضي، ص ص ١٥٩ - ٢٦٤

**الدراسة الثامنة : منطقة الباحة (غامد وزهران) كما سمعت عنها
وشاهدتها (٢٩/١١/٩٠١٢/١٢/١٤٣٣هـ/١٥-٢٥/١٠/٢٠١٢)**

م	الموضوع	الصفحة
أولاً	مدخل :	٣٠٧
ثانياً	الوضع الجغرافي والسكاني	٣٠٨
ثالثاً	الأوضاع الاجتماعية	٣١٦
	١- الأسرة والمجتمع	٣١٦
	٢- العمارة ومرافقها	٣١٨
	٣- الأطعمة والأشربة	٣٢٧
	٤- الألبسة والزينة	٣٢٩
	٥- الفنون الشعبية والألعاب الرياضية	٣٣٢
	٦- عادات وتقاليد وأعراف أخرى	٣٣٤
رابعاً	الأوضاع الاقتصادية	٣٣٨
	١- الجمع والالتقاط	٣٣٨
	٢- الصيد	٣٣٩
	٣- الزراعة	٣٤١
	٤- الحرف والصناعات	٣٤٣
	٥- التجارة	٣٤٧
	٦- معوقات الحياة الاقتصادية	٣٥٩
خامساً	الأوضاع التعليمية والثقافية والفكرية	٣٦١
	١- التعليم	٣٦١
	٢- الفكر والثقافة	٣٧٤
	٣- اللهجات	٣٨٠
سادساً	الخاتمة : نتائج وتوصيات	٣٨٣

أولاً : مدخل :

منطقة الباحة تقع بين مناطق المملكة الرئيسية الوسطى وعسير من الشرق والجنوب^(١)، ومكة المكرمة من الشمال والغرب^(٢). وتشمل تضاريسها أجزاء تهامة والأصدار من الغرب، والسروات في الوسط، والبوادي في الشرق^(٣). وهي واحدة من مناطق المملكة الرئيسية^(٤). وفي هذا القسم لن ندرس منطقة الباحة دراسة توثيقية تعتمد على الوثائق والمصادر والكتب المطبوعة، فهذا منهج سلكناه في أقسام أخرى من هذا السفر^(٥)، وقد نرصد دراسة مستقلة في المستقبل نُورخ فيها لهذه المنطقة منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الحديث^(٦)، والذي سوف ندونه هو ما سمعناه وشاهدناه في هذه البلاد الغامدية والزهرانية. ولن نسلك مسلك الرحالة السابقين الذين ساروا في مناكب الأرض ورسدوا تحركاتهم ومشاهداتهم ساعة بساعة ويوماً بيوم وشهراً بشهر^(٧)، وإنما سرنا وتجولنا في أرجاء هذه المنطقة الجنوبية، وجمعنا ما استطعنا جمعه، مستعينين بالعديد من الأساتذة الكرام في البلاد الباحوية^(٨)، ثم دوننا مادتنا المجموعة في محاور

(١) تحدها بلاد خثعم وما جاورها من الجنوب، وقبائل سبيع والبقوم من الشرق. وتحدها العديد من محافظات ومراكز منطقة مكة المكرمة من الشرق وتحدها العديد من محافظات ومراكز منطقة مكة المكرمة من الشمال والغرب. مشاهدات الباحث خلال شهر ذي الحجة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م).

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تجول الباحث في أرجاء هذه المنطقة في نهاية عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م).

(٤) منطقة الباحة من مناطق الجنوب الرئيسية مثل: عسير، وجازان، ونجران. بالإضافة إلى مناطق المملكة العربية السعودية: الوسطى، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والمنطقة الشرقية، والقصيم، والجوف، وتبوك، وحائل، والحدود الشمالية. للمزيد من التفاصيل عن هذه المناطق انظر سجلات وتقارير وزارة الداخلية، والتقارير والكتيبات الصادرة من كل إمارة الرئيسية في هذه المناطق .

(٥) انظر الأقسام السابقة في هذا الكتاب .

(٦) سبق وأن أخرجنا دراسة عن الباحة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة . انظر: ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق١-ق١٠هـ/ق١٧ق١٦م)، ج٢، ص١٢٣ وما بعدها . وقد نخرج دراسة موسعة في كتاب مستقل عن هذه البلاد خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط، وهي فعلاً تستحق أن يصدر عنها دراسات أكاديمية عديدة .

(٧) من ينظر في كتب الرحالين المسلمين وغير المسلمين يجدهم يتحدثون عن المواقع حسب سيرهم الجغرافي والزمني، فعندما ينزل الواحد في مكان ما يذكر وقت نزوله، ثم يشرح ما رآه وشاهده، ثم ينتقل إلى مكان آخر، وهكذا يسير على نفس المنهج .

(٨) في الأسبوع الأخير من شهر ذي القعدة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) خاطبنا الأستاذ الكريم حسن بن محمد الزهراني، رئيس نادي الباحة الأدبي، وأبدينا له ولأعضاء مجلس إدارة النادي رغبتنا في زيارة منطقة الباحة وجمع مادتنا لهذا القسم، وتجاوب مشكوراً هو ومجلس إدارة ناديه على استضافتنا عشرة أيام من (٢٩/١١/١٤٢٣هـ - ٩/١٢/١٤٢٣هـ)، وقد وصلت إلى مدينة الباحة يوم الثلاثاء الموافق (٢٩/١١/١٤٢٣هـ / ١٥/١٠/٢٠١٢م)، وقابلني ممثل النادي الأستاذ عبد الله بن سعيد بن ناصر الغامدي وسهل لي أمر السكن، وبدأت أتصل بشكل ودي وشخصي ببعض متقفي المنطقة، فوجدت العديد من الإخوان والأصدقاء الذين قدموا لنا يد العون وتقبل معنا بعضهم في أرجاء المنطقة، وبعضهم استضافني في منزله، وآخرون رتبوا لي زيارة بعض الأعلام والمواقع في أنحاء البلاد . ومن باب ذكر أهل الفضل بفضلهم فإنني أشكرهم وأذكرهم، وهم على النحو التالي: الدكتور جمعان عبد الكريم عطية الغامدي، والدكتور علي بن عثمان الزندي، والدكتور محمد بن جمعان بن دادة الغامدي، والدكتور عوض علي السبالي الزهراني، والأساتذة الكرام: عبد الله محمد الدربي، ومحمد فرحة شاهر الغامدي، وموسى

رئيسية، مع الحرص على وحدة الموضوع دون أن نذكر الساعة أو اليوم الذي زرنا فيه كل ناحية، وإنما اكتفينا في الحاشية السابقة بذكر التاريخ الذي مكثناه في بلاد الباحة أثناء جمع مرويَاتنا ومشاهداتنا، وقد يتخلل هذا القسم النقص والقصور، ونأمل أن نورد ما يفيد وينفع، كما نأمل أن يظهر في المستقبل من يصحح ما وقعنا فيه من أخطاء غير مقصودة، أو يستكمل ما لم نستطع تدوينه. (والله من وراء القصد).

ثانياً : الوضع الجغرافي والسكاني :

أ. الجانب الجغرافي :

تقلنا في أرجاء منطقة الباحة بدءاً من مركز شرى جنوب المنطقة حتى مدينة بلجرشي وما جاورها من أحياء^(١)، ثم سرنا في جنبات وضواحي المدينة، وزرنا بعض مراكز محافظة بلجرشي مثل: مركز بالشهم، ومركز جرد^(٢). ثم انتقلنا من حاضرة بلجرشي إلى بوادي غامد التي تمتد من شرق مدينة بلجرشي مروراً بمركز جرد حتى شرق وادي العقيق في غامد، ووادي بيده في زهران، بل وصلنا إلى أطراف غامد وزهران الشرقية قريباً من بلاد سبيع والبقوم.^(٣) وذهبنا في جولاتنا السريوية شمالاً إلى بلاد بني كبير وبني ظبيان وبني عبد الله وبني خثيم في مدينة الباحة وما جاورها من المراكز والنواحي، ثم سرنا إلى قرية بني سار في بني عامر من زهران، ودخلنا إلى وادي بيده الذي يتجه من سروات زهران شمالاً إلى وادي تربة، وشاهدنا محافظة القرى وما يوجد بها من معالم جغرافية، واتجهنا شمالاً حتى رأس جبل شمرخ، ثم سرنا نحو الشمال الغربي مروراً بعقبة ذلاله التي أخذتنا إلى بلاد دوس، وواصلنا السير من هناك إلى بلاد بني حسن الزهرانية، وبلاد بالحكم وبلخزمر مروراً بمحافظة المنطق، وهذه البلاد يعبرها طريق

-
- أحمد محمد العبدلي، ومنصور محمد عبد الله موالا، ومحمد سعيد موالا، ومحمد سعيد رمزي الغامدي، وعلي فيصل عبد الرحمن الزهراني، وأحمد عبد الكريم عطية الغامدي، وعلي محمد صالح الزهراني، وحسن عبد الكريم عطية الغامدي، وجمعان غرم الله آل موسى الغامدي، وخالد محمد كرت الغامدي، وعلي محمد سعيد آل مسعود الزهراني .
- (١) وادي شرى وما يوجد به من عشائر وقرى يقع إلى الشمال من قبائل خثعم وعليان وشمران، وكان يتبع إدارياً إمارة منطقة عسير، وفي عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) صار تابعاً لإمارة منطقة الباحة ويسكنه قبائل بني ميمون وعشائر أخرى . مشاهدات الباحث في شهر ذي الحجة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) .
- (٢) محافظة بلجرشي مدينة رئيسية في منطقة الباحة وكانت الإمارة الرئيسية فيها في العقود الأولى من النصف الثاني للقرن الهجري الماضي، ويتبع لها العديد من المراكز مثل: بالشهم، وبني كبير، وشرى، وجرود وغيرها . وهي المدينة الثانية تنموياً وحضارياً بعد مدينة الباحة . مشاهدات الباحث في عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) .
- (٣) من خلال جولتنا اتضح لنا أن بلاد غامد السراة والبادية أوسع أرضاً وأكثر سكاناً من بلاد زهران السراة . ثم إن قبيلة غامد لها سروات وبواد وأجزاء تهامية، في حين أن زهران ليس بها بوادي، ومساحتها أصغر من غامد في السراة، لكن أرضها ومستوطناتها في تهامة أوسع أرضاً وأكثر سكاناً . مشاهدات الباحث عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) . .

الباحة الطائف السياحي، ثم تجولنا أخيراً في مدينة الباحة وقراها وضواحيها،^(١) ثم نزلنا إلى الأجزاء التهامية سالكين عقبة الباحة المخواة^(٢). وتوقفنا في قرية ذات عين الواقعة في أسفل تلك العقبة^(٣)، وعند وصولنا إلى المخواة تجولنا في أرجائها، ثم اتجهنا شمالاً إلى محافظة قلوة الزهرانية، ووصلنا إلى قرية الخلف والخليف الأثرية، وواصلنا السير حتى بلدة الشعراء ثم محافظة الحجرية في أقصى تهامة زهران من الشمال، وعند عودتنا مررنا على أسفل جبل شدا الأعلى والأسفل^(٤)، ثم اتجهنا إلى وادي نيرا، ومن هناك ذهبنا إلى بلاد غامد الزناد وجنوب تهامة غامد^(٥)، وأخيراً واصلنا السير في الجهة الشمالية الغربية حتى وصلنا إلى أجزاء من وادي الأحسبة، وناحية ناوان الزهرانية^(٦)، وعند الانتهاء من هذه الجولة التهامية عدنا للإقامة في مدينة الباحة من أجل جمع وتصنيف وترتيب مادة هذه الرحلة السريوية والتهامية في منطقة الباحة.^(٧)

(١) قضينا خمسة أيام في التنقل في هذه الأجزاء السريوية والبوادي، وجميع هذه البلاد التي مررنا بها غامدية وزهرانية، ومركزها إمارة الباحة، ويوجد بها العديد من المحافظات والمراكز التابعة للإمارة، ناهيك عن مئات المدن والقرى. أما العشائر والأفخاذ فهي أيضاً تدخل في خانة المئات أيضاً. وهناك عشرات الكتب المطبوعة والمنشورة التي تحدثت عن أسماء وقرى وعشائر وقبائل هذه البلاد. وكثير من هذه الكتب تحتاج إلى دراسة وتحليل لما يوجد فيها من الخلط وعدم الدقة في رصد كثير من المعلومات.

(٢) المخواة: أكبر محافظة تهامية تتبع إمارة منطقة الباحة، وسكانها الرئيسيين قبيلة بني عمر. وهذه القبيلة تدعي أنها قبيلة مستقلة عن غامد وزهران، وهناك من يقول أنها تابعة نسبياً وقبلياً لقبيلة زهران. وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة علمية أكاديمية قائمة على وثائق ومصادر موثوقة، ونأمل أن يظهر من أبناء هذه البلاد من يتولى هذا الموضوع بالبحث والدراسة.

(٣) قرية ذي عين: سميت بهذا الاسم نسبة إلى العين الجارية فيها، وهي قرية أثرية يعود سكانها إلى قبيلة بني عمر وقد هُجرت، وتتكون منازلها من دور إلى أربعة وخمسة أدوار، وتعد معلماً حضارياً هاماً تستحق الصيانة والاعتناء من قبل الجهات المسؤولة في إمارة الباحة أو في الدولة. وقد شاهدنا إقامة بعض المنشآت القليلة والضئيلة من قبل الهيئة العليا للسياحة، وتحتاج إلى جهود وإنفاق أكبر من أجل حفظها من الخراب والاندثار الظاهر عليها.

(٤) لم نصعد إلى رأس هذين الجبلين. ونأمل أن نزوره مره أخرى ونجري حوله بعض الدراسات مع أنه ذكر لنا أن معظم أهله نزلوا إلى السهول ولم يبق في أعلاها شيء كبير من الحياة السكانية.

(٥) غامد الزناد: الذين شيوخهم أسرة آل الزندي يمثلون جزءاً كبيراً من قبيلة غامد. وهذه النواحي التهامية تحتاج إلى تضافر جهود المؤرخين في دراسة تاريخها وحضارتها.

(٦) هذه المناطق محاذية لأطراف محافظة القنفذة الشرقية، وسكان هذه البلاد يتقاسمون الحياة المعيشية مع إمارة منطقة مكة المكرمة. وسبب بعدها عن مراكز النمو الحضاري في الباحة ومكة المكرمة فقد نالها بعض الإهمال التنموي، ولازالت تحتاج إلى تضافر جهود أهلها والمسؤولين في بلادها وفي مواطن صنع القرار في الباحة أو في الوزارات حتى يرتقوا بالأرض والإنسان في هذه البلاد التهامية.

(٧) قضينا يومين في رحلة تهامة، وثلاثة أيام أخرى في مدينة الباحة من أجل مراجعة مادتنا المجموعة، والتأكد من صحة بعض المعلومات المسموعة والمشاهدة. وكان الإخوة الكرام الذين ذكرنا أسماءهم في إحدى حواشي المحور السابق خير دليل وسند ومعاون في إنجاز هذه المهمة، فאלله نسال أن يرزقتنا وإياهم الثبات على دينه، وأن يخلص لنا ولهم النية، وألا يحرمهم أجر ما قدموا لنا.

من خلال هذه الرحلة استطعنا أن نخرج في باب الجغرافيا بالعديد من الحقائق والمدونات والمشاهدات التي نذكر أهمها في النقاط التالية :

أ . تتنوع تضاريس بلاد الباحة، فقد جمعت بين البادية، والسراة، والأجزاء التهامية. ونلاحظ في القديم والحديث أن معظم مواطن الاستيطان كانت في أرض السراة، وفي الأجزاء التهامية . وقد شاهدنا مئات القرى القديمة المندثرة في هاتين الناحيتين، أما البادية فلم تكن خالية من السكان، إلا أنهم كانوا في السابق من البدو الرحل الذين يذهبون وراء مواشيهم بحثاً عن الماء والمرعى، ونشاهد اليوم أن أماكن الاستيطان الحديثة حلت قريباً من الأماكن القديمة، إلا أنها أكثر اتساعاً وتنظيماً وكثافة سكانية، كما شاهدنا البوادي وقد أصبحت مأهولة بالسكان المستقرين الذين يملكون المنازل المسلحة، والخدمات الضرورية^(١) .

ب - طبيعة الأرض تختلف من مكان لآخر، فالبوادي والأجزاء الشرقية من سراة زهران ذات غطاء نباتي فقير، وقد شاهدنا بعض الشجر والشجيرات القليلة، لكن طبيعتها الجرداء هي الغالبة على هذه الناحية بعكس سروات غامد والأجزاء الغربية من زهران وغامد المطللة على تهامة، والنواحي الشمالية الغربية من سراة زهران فهي ذات غطاء نباتي جيد، حيث يوجد فيها غابات وأشجار وشجيرات عديدة وإذا حصرنا أنواع وأسماء الأشجار في هذه الأجزاء فإنها تعد بالمئات وربما الآلاف^(٢). وإذا طالعنا منطقة تهامة وجدناها هي الأخرى لا تخلو من غابات وأشجار وشجيرات عديدة ومتنوعة^(٣).

ج - شاهدنا عشرات الجبال والهضاب والأودية في البادية والسراة وتهامة، ورأينا تفاوت أطوالها، وكثافة غطائها النباتي، بالإضافة إلى كثافتها السكانية^(٤) وقد خرجنا من هذا الرصد والمشاهدة بالعديد من الملاحظات مثل:

- (١) دراسة التغيرات الاجتماعية التي جرت في منطقة الباحة خلال الخمسين أو الستين سنة الماضية القريبة جديرة بالبحث والدراسة . ويجب على جامعة الباحة أن تنشئ مراكز أبحاث لدراسة الأرض والسكان والتغيرات التي جرت عليها .
- (٢) على أقسام علم النبات والطب في جامعة الباحة مسؤولية عظمى تجاه دراسة نباتات هذه المنطقة، مع إيضاح فوائدها، وكيفية توظيفها لخدمة إنسان هذه المنطقة .
- (٣) من أهم نباتات وأشجار منطقة الباحة (تهامة وسراة وبادية) ، المرعر، والعم، والأثب، والرقع، والسلم، والنشم، والسمر، والعرفج، والطباق، والشث، والإبراء، والنيم، والأثل، والسدر، والقرض، والظهياء، والشوحط، والتأب، والطلح، والثعب، والمض، والعشر، والمرخ، والبشام، والسعور وغيرها . ومن خلال تجول الباحث شاهدنا عشرات الغابات المتناثرة في سراة غامد، وفي السروات الغربية الزهرانية، وفي أودية الأحسبة ونبرا وبعض النواحي القريبة من محافظة المخوة . ودراسة الغابات وما يوجد بها من نباتات وكيفية الاستفادة منها موضوع جدير بالبحث والدراسة .
- (٤) لم نتعرض لذكر أسماء الجبال والأودية في منطقة الباحة، فلا تخلو كل محافظة من كتب تعريفية بالأرض، كما أن الأستاذ علي السلوك أصدر معجماً توضيحياً فصل فيه قرى وجبال وأودية بلاد غامد وزهران . ولا زالت منطقة الباحة تحتاج إلى دراسات تأسيسية توثيقية عن الأرض والسكان . ونأمل أن يلتفت بعض الأكاديميين في جامعة الباحة إلى هذا الجانب الهام .

١ . أماكن الاستيطان قديماً تجدها في أعالي الهضاب والجبال وأحياناً على أطراف الأودية، في حين أن معظم أماكن الاستيطان اليوم في السهول وعند الأجزاء السفلية من الجبال وأحياناً في مجاري الأودية أو على أطرافها^(١)، والتنمية الحديثة، وسهولة المواصلات، وتوفير الأمن، وتكاثر المال في أيدي الناس جعل الاستفادة عمرانياً وحضارياً من الجبال والأودية أفضل مما كانت عليه في السابق^(٢) .

٢ . امتداد يد الإنسان إلى بيئات الأودية والجبال وما جاورها فقام بشق الطرق، وبناء القرى والأحياء والمدن، وإنشاء بعض المشاريع الاقتصادية، كل ذلك أثر سلباً على الغطاء النباتي، وجمال الأرض الطبيعي^(٣) .

د . مما سمعنا وعرفنا وجود العديد من الحيوانات البرية، والأليفة والطيور التي كانت تتواجد بكثرة في أنحاء منطقة الباحة^(٤) . وفي العقود الماضية المتأخرة لازلنا نشاهد بعض الحيوانات والطيور الموجودة في بوادي وأرياف وأصدار المنطقة، مثل: الضباع والثعالب، والنيص، والغزلان، والعصافير، والحجل، والحمام. بالإضافة إلى الحيوانات الأليفة مثل: الماعز، والغنم، والبقر، والجمال. وبعض الطيور مثل: الدجاج، والحمام وغيره^(٥)

هـ . تعاني طبيعة منطقة الباحة اليوم من مشاكل عديدة مثل :

١ . التصحر الذي جرى على بعض الجبال والأودية، وهذا يعود إلى الجفاف وقلة الأمطار، وامتدت يد الإنسان بدون وعي، أو من باب الطمع، إلى البيئية فقام بتجريف الأرض وقطع الأشجار من أجل إقامة مشروع خاص أو عام، والتوسع العمراني، وإن كان ذا جانب إيجابي، إلا أنه أثر سلباً على جغرافية الأرض وطبيعتها^(٦).

(١) مشاهدات الباحث خلال شهر ذي الحجة عام (٢٠١٢هـ/١٤٣٣م) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) كوني من أبناء منطقة عسير، المجاورة لمنطقة الباحة من الجنوب، ثم معرفتي لبلاد الجنوب (الباحة وعسير وجازان والقنفذة ونجران) منذ أربعين سنة فقد عرفت وشاهدت جمال الطبيعة في هذه الأوطان قديماً، وما جرى عليها من تدهور وجفاف وتجريف خلال هذه العقود الماضية، كل هذا أثر سلباً على طبيعة هذه البلاد. ودراسة التاريخ الجغرافي لهذه المناطق منذ خمسين عاماً إلى اليوم جدير بالبحث والاهتمام من الجغرافيين والباحثين الجادين . وهذه مسؤوليات جامعاتنا المحلية، التي يجب عليها إنشاء مراكز بحثية تقوم بإجراء مثل هذه البحوث الأكاديمية الهامة .

(٤) كانت منطقة الباحة في القديم من البلاد المأهولة بالحيوانات البرية، مثل : النمر، والأسود، والضباع، والذئاب وغيرها، وأنواع عديدة من الطيور . كما أن السكان كانوا يمتلكون قطعاناً كبيرة من الأغنام والماعز والبقر والجمال، ومنذ بداية هذا القرن بدأ الناس يتركون امتلاك هذه الثروة الحيوانية، ويلجأون إلى أعمال أخرى وهذا مما أثر في حياة الأرض والسكان .

(٥) امتلاك مثل هذه الحيوانات والطيور أصبحت موجودة على نطاق ضيق مقارنة بالنصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) .

(٦) دراسة ما حل بطبيعة الأرض سلبياً يحتاج إلى إجراء دراسة علمية أكاديمية، وهذه مسؤوليات الجامعات والأقسام الأكاديمية .

٢. انحسار وقلة المياه في الآبار الجوفية، وتزايد الآبار الارتوازية، وجفاف العيون والجداول كل هذا أثر على تدهور الزراعة والغطاء النباتي في المنطقة^(١).
٣. امتداد يد الإنسان إلى قطع صخور الجبال إلى قوالب ونقلها من أماكنها إلى أماكن أخرى من أجل التجارة واستخدامها في العمارة والبناء^(٢).
٤. ظهور العديد من المشاكل المناخية مثل: الأعاصير والغبار، واختلاف مواعيد الأمطار، وغالباً عدم هطولها، وحدوث بعض الصواعق، والجفاف، وارتفاع الحرارة كل هذا ساعد في إلحاق الضرر بأرض وإنسان منطقة الباحة وما جاورها .

٢. الوضع السكاني :

- معظم سكان منطقة الباحة من قبيلة الأزدي القحطانية . وهناك العديد من كتب النسب القديمة، ودراسات حديثة قالت بذلك^(٣) . ولا تخلو قبائل منطقة الباحة من مخالطتها لبعض العشائر أو الفخوذ أو الأسر العدنانية، وذلك يعود لبعض الأسباب مثل:
١. اتصال قبائل غامد وزهران بأهل الحجاز منذ العصر الجاهلي، فكانوا على علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية^(٤) .
 ٢. كان أشرف مكة وأحياناً المدينة المنورة يمدون نفوذهم سياسياً وعسكرياً إلى الديار الغامدية والزهرانية . بل إن بعض أمراء الأشراف جاءوا إلى هذه البلاد واستقروا بها، وملكوا بها الدور والعقار، وأحياناً يطلب أمراء الأشراف العون والنجدة من الغامدين والزهرانيين ضد أمراء وأشرف آخرين في مكة والمدينة^(٥) .

- (١) هذه مشكلة لا تعاني منها منطقة الباحة فقط وإنما معظم أجزاء المملكة العربية السعودية، ولا بد من عمل دراسات وإيجاد بدائل وحلول لهذه المشكلات الطبيعية الجغرافية .
- (٢) في الماضي كانت جميع مواد البناء محلية، وكانت الطبيعة في أزهى ازدهارها وجمالها . واليوم أصبحت معظم بل جميع مواد البناء مستوردة، ومع ذلك قام الإنسان بالاعتداء على الطبيعة فجرف أتربتها، ونقل حجارتها، وقطع أشجارها ونباتاتها، وكل هذا أثر سلباً على تضاريس ومناخ البلاد، بل إن هذه الآثار السلبية امتدت إلى حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية .
- (٣) هناك العديد من المصادر والمراجع التي ذكرت تاريخ وأنساب بلاد غامد وزهران، واعتقد أن معظمها يحتاج إلى دراسة وتحليل، ثم التثبت من صحة ما ورد بها . كما أن أنساب غامد وزهران لازالت تحتاج إلى دراسات علمية أكاديمية موثوقة .
- (٤) كتب التراث الإسلامي المبكرة تشتمل على شذرات وروايات تؤكد على علاقة زهران وغامد بسكان الحجاز وبخاصة قبيلة كنانة التي منها عشيرة قريش . وتاريخ هذه البلاد الأدبية قبل الإسلام وخلال القرون الإسلامية الأولى جدير بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية .
- (٥) مصادر تاريخ الحجاز منذ القرن (١٢٣٠هـ/١٨٠٩م) تحوي بعض الروايات التي تؤكد استعانة بعض أشرف مكة بالزهرانيين والغامدين من أجل استعادة سلطانهم من بعض عمومهم الذين تغلبوا عليهم، والصلوات التاريخية والحضارية بين غامد وزهران وأهل الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة، موضوع جدير بالبحث والدراسة . ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير، ونأمل أن يتولى ذلك أحد طلاب أقسام التاريخ الأكاديمية في جامعاتنا السعودية .

٢. الذهاب في أرجاء بلاد غامد وزهران اليوم، تهامة وسراة، يجد بعض القرى والأسر التي تدعى نسبها في القبائل العدنانية . وقد التقيت أثناء جولتي التي قام عليها هذا البحث ببعض الأعيان والوجهاء والعامّة في قرى ونواح من تهامة وسراة زهران، وأطلعوني على بعض المخطوطات والمشجرات النسبية التي ترجع نسبهم إلى بني هاشم وأحياناً إلى قريش . وقد حاولت الحصول على صور من تلك المشجرات لكنهم امتنعوا، فأوصيتهم بالكتابة عنها، مع أنهم طلبوا منا عدم ذكر أسمائهم، ونأمل أن يأتي اليوم الذي يقتنعون فيخرجون ما لديهم من تراث وموروث علمي، أو يسلموها إلى باحثين أو مركز بحث يتولى دراستها وإخراجها^(١) .

في العصر الحديث تجاذبت بلاد الباحة بعض القوى السياسية والإدارية، ففي النصف الأول من القرن (١٢هـ/١٩م) دخلت تحت نفوذ الأشراف والقوى العثمانية في الحجاز، وفي فترة أخرى صارت إلى جانب إمارة آل المتحمي في عسير، واستمرت على هذا المنوال منذ الخمسينيات إلى ثمانينيات القرن نفسه^(٢) . وعندما أصبحت عسير تحت حكم المتصرفية العثمانية في أبها (١٢٨٩-١٢٣٧هـ / ١٨٧٣-١٩١٨م) أصبحت منطقة الباحة إدارياً وسياسياً تابعة لحكومة بني عثمان في أبها^(٣) . وعند مجيء الحكم السعودي الحديث إلى الجنوب في أربعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م)، دخلت هذه البلاد تحت حكومة ابن سعود، وتطورت حتى أصبحت منطقة رئيسية من مناطق المملكة العربية السعودية^(٤) .

ومن ثم فالمنطقة الباحوية بقيت ولازالت متمسكة بصراحة نسب أهلها، مع أنه وفد إلى المنطقة خلال القرنين (١٢-١٤هـ/١٩-٢٠م) العديد من الأجناس البشرية، ومنهم من مكث بها وقتاً قصيراً، وآخرون أقاموا فيها أوقاتاً طويلة، ونسبة قليلة استوطنوها ولا زالوا يعيشون بها إلى اليوم، وقد جرى على التركيبة السكانية الغامدية والزهرانية منذ القرن (١٢هـ/١٩م) بعض التحولات التي نذكر بعضها في النقاط التالية :

(١) من خلال تجوالنا في عموم منطقة الباحة، ومقابلتنا لبعض الأسر والأفراد الذين ينتمون إلى بيوتات علم قديمة وجدنا أنهم يقتنون بعض الوثائق السطحية في مادتها العلمية، وربما لو درست فقد يجد الباحث فيها معلومات ذات قيمة . مع العلم أنني على يقين أن هناك وثائق محلية متناثرة بين أيدي الناس، وربما تكون ذات فائدة كبيرة في ميدان البحث التاريخي والحضاري لبلاد غامد وزهران . ونأمل أن يقوم أحد طلابنا في برنامج الدراسات العليا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد فيتولى هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية .

(٢) هناك العديد من الدراسات الحديثة التي ذكرت تاريخ منطقة الباحة خلال حكمي الأشراف في الحجاز وآل المتحمي وآل عائش في عسير . خلال القرن (١٢هـ/١٩م)، وتاريخ غامد وزهران في تلك الحقبة يستحق أن يفرد له كتاب أو رسالة علمية مستقلة .

(٣) هناك إشارات ودراسات مختصرة عن متصرفية عسير في عصر النفوذ العثماني من (١٢٨٩-١٢٣٧هـ / ١٨٧٣-١٩١٨م)، وإفراد بحث مستقل عن البلاد الممتدة من أبها إلى الباحة خلال تلك الحقبة جدير بالاهتمام، ونأمل أن يقوم أحد طلاب الدراسات العليا في واحد من أقسام التاريخ بالمملكة فيتولى هذه الفترة بالبحث والدراسة العلمية .

(٤) تاريخ منطقة الباحة في العصر السعودي الحالي يستحق عشرات الكتب وهذه مهمة جامعة الباحة فتشئ مركز بحث يتولى هذه الحقبة بالبحث والدراسة الأكاديمية الجادة .

- أ. السكان الأصليون مقيمون في مواطنهم، والذاهب الأيب في البلاد يجد أن كل قرية، وكل فخذ وعشيرة وبطن يسكنون في ناحية من هذه الديار السروية والتهامية، وإذا انتقلوا من مواطنهم أو مساكنهم فهم لا يذهبون بعيداً وإنما يبقون في محيط ديارهم التي قطنوها منذ أزمنة قديمة^(١).
- ب. ممارسة التجارة، أو الزراعة، أو غزوات حربية قدمت إلى المنطقة، كل هذه الأعمال السياسية والحضارية جلبت بعض الأجناس والعناصر البشرية إلى المنطقة لكنها لم تؤثر بشكل ملموس في تغيير التركيبة السكانية.
- ج. منذ قيام الدولة السعودية الحديثة وفتح المؤسسات الإدارية والمدارس، أدى ذلك إلى وفود عناصر بشرية إلى المنطقة بعضهم من داخل المملكة وآخرين من خارجها. فالعاملون في المؤسسات الإدارية قدموا من الحجاز ونجد للعمل في هذه القطاعات الحكومية، وعاشروا أهل المنطقة، وقليل منهم تزوجوا من هذه الديار الغامدية والزهرانية، أما مهنة التعليم فقد جاء للعمل فيها أجناس عديدة من داخل المملكة ومعظمهم من خارجها^(٢). والراصد لحركة المعلمين في منطقة الباحة منذ التسعينيات يجد أن معظمهم من بلاد الشام، ومصر، والسودان، وهناك مدرسون آخرون غربيون لتدريس اللغة الإنجليزية، واستمر ذلك حتى الثمانينيات، ثم بدأ المعلمون السعوديون يصلون إلى منطقة الباحة ويحلون محل الوافدين المتعاقدين^(٣).
- د. تدفق البترول بكميات كبيرة، واتساع وتطور التنمية في المملكة، ووجود جامعات ووظائف حكومية، جعل أبناء منطقة الباحة يهاجرون من أوطانهم إلى المدن والحواضر الكبرى من أجل تنمية أنفسهم وتطوير أوضاعهم الاقتصادية والتعليمية، ومن ثم حدثت هجرة كبيرة من قرى منطقة الباحة إلى مدن المملكة الكبرى، وعندما افتتحت المدارس العليا والوظائف الحكومية في الباحة وبلجرشي نجد شباب ورجال القرى والبوادي يتجهون إلى مراكز النمو والحضارة، في المنطقة نفسها، وهذا مما جعل التركيبة السكانية تتأثر من خلال هذه الهجرات. والغالب أن النساء والأطفال والمسنين مكثوا في مواطنهم الرئيسية، والمتنقلون هم من فئة الشباب والرجال^(٤).

(١) وقف الباحث على قرى حديثة وقديمة في مواطن العشيرة الواحدة، وساكنيها من بطن أو فخذ أو نسب واحدة. والحراك العمراني أحياناً هو الذي يجعلهم ينتقلون من مكان لآخر ضمن حدود قبائلهم أو عشائرهم الرئيسية.

(٢) تاريخ التطور الإداري والتعليمي في منطقة الباحة خلال النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) يستحق أن يكون موضوعاً لأطروحة علمية لدرجتي الماجستير أو الدكتوراه، نأمل أن نرى طالباً جاداً في أحد أقسام التاريخ فيقوم بالبحث والدراسة الأكاديمية لهذا الموضوع.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تاريخ هذا الحراك الاجتماعي خلال الثمانين سنة الماضية جدير بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية.

هـ - فتح الطرق وربط القرى والمدن بعضها ببعض جعل أبناء المنطقة أنفسهم يتصلون ببعضهم البعض في تجاراتهم وأوضاعهم الاقتصادية، كما أن المصاهرة والزواج انتشر وتوسع بين العشائر والبطون، ففي الماضي كان الرجل أو المرأة لا يتزوجون إلا في محيط قراهم، ومنذ عقدين أو ثلاثة نجد أن الرجال لا يقتصرون على الزواج من قبائل غامد وزهران وإنما خرجوا إلى القبائل الأخرى في الجنوب السعودي وأحياناً في مناطق بعيدة من المملكة، بل إن البعض - وهم قلة - تزوجوا من خارج البلاد، كذلك النساء أصبحن يتزوجن في أطراف المنطقة، وفي أنحاء عديدة من المملكة العربية السعودية، كما أن أهل البادية والسرارة وتهامة في الباحة أصبحوا على صلات اجتماعية قوية، والناظر في أحوال المنطقة قبل ثلاثة أو أربعة عقود. يجد أن اتصال أهل السرارة بتهامة كان صعباً جداً، وذلك لوعورة الطرق، أما اليوم فبالغالبية من السرييين امتلكوا عقارات ومنازل في الأجزاء التهامية الممتدة من مكة المكرمة إلى جازان^(١). وكثير من الغامديين والزهرانيين يعيشون في المدن الصغرى والكبرى من المملكة، وصاروا أصحاب أموال وعقار، ولا يأتون بلادهم الرئيسية إلا في أوقات الصيف، وأحياناً لا يعودون إليها إلا في فترات متباعدة^(٢). وقد عثرنا على بعض الوثائق التي تشير إلى هجرة بعض رجال غامد وزهران إلى خارج المملكة العربية السعودية منذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م)، وذلك لأسباب تعليمية أو تجارية، وبعضهم عادوا إلى بلادهم واستقر بعضهم في اليمن وبعض البلاد الإفريقية مثل إريتريا والحبشة ومصر وغيرها^(٣).

و - نلاحظ أن سكان بادية غامد كانوا بدأً يتنقلون في أرجاء المنطقة، وربما خرجوا منها إلى أطراف نجد. ومع ظهور التمدن والتوطين تركوا التنقل والترحال وبنوا منازل مسلحة واستقروا في محيط قبائلهم، والمتجول في بوادي شرق غامد يجد مواطنهم أصبحت قراهم وبيوتهم تتراوح من دور إلى ثلاثة أدوار، مع توفر الخدمات الضرورية لهم مثل: الكهرباء، والسيارات وغيرها^(٤).

وإذا ألقينا نظرة عامة على مواطن الاستقرار في المنطقة وجدناها أصبحت مكتظة بالسكان. فهناك كثير من المدن والقرى المتمدنة في معظم خدماتها، ونرى المخططات والأحياء الحديثة المنتشرة في كل حاضرة ومدينة وكذلك البنية

(١) إن اتصال أهل السرارة بتهامة خلال الثلاثين سنة الماضية يحتاج إلى دراسة أكاديمية تشرح العوامل والمقومات التي ساعدت في هذا الصلات، مع ذكر الإيجابيات والسلبيات التي ترتبت على هذه العلاقات البشيرية .

(٢) تاريخ الهجرة داخل المملكة العربية السعودية جدير بالبحث والدراسة، مع ذكر الأسباب والنتائج لتلك الهجرات .

(٣) هجرة بعض الغامديين والزهرانيين خارج المملكة العربية السعودية موضوع هام وجدير بالبحث والدراسة . نأمل أن يتخذ موضوعاً لرسالة ماجستير في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أو أي قسم من أقسام التاريخ في الجامعات السعودية .

(٤) تاريخ توطين البادية في جنوبي البلاد السعودية موضوع جدير بالبحث والدراسة الأكاديمية الموثقة .

التحتية الجيدة التي يمتلكها الناس في مدنهم وقراهم وأريافهم، فهناك المؤسسات الحكومية المتطورة، والجامعات، والمستشفيات وغيرها من الخدمات^(١)، كل هذا أثر على أهل البلاد الساكنين في المدن الرئيسية في المملكة، فالبعض منهم تركوا المدينة وعادوا إلى موطن الآباء والأجداد، واستمروا يعيشون بين أهلهم وعشيرتهم، وأحياناً يعود البعض ويسكن المدن الكبيرة في منطقة الباحة مثل: الباحة، وبلجرشي، والمندق وغيرها. وفيها يجدون معظم احتياجاتهم، فلا يفكرون بالخروج والاستقرار خارج المنطقة^(٢).

ز. منذ أربعة عقود مضت سارت عجلة التنمية والتطور في بلاد الباحة، فالتسعت المدن، وازدادت الأسواق، ونشطت الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وبدأت العمالة الخارجية تصد إلى البلاد، وكان اليمينيون الأكثر نسبة في التسعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ثم استقدمت جنسيات أخرى منهم: المصريون، والسودانيون، والأفغان، والباكستانيون، والهنود، وبعض الفلبين، والبنجاليين، وأعداد قليلة من الغربيين، والصينيين والكوريين، وغيرهم. والمتجول اليوم في أرجاء منطقة الباحة يجد أن هذه العمالة الوافدة هي المحرك الاقتصادي في المنطقة، فلا يخلو مصنع أو سوق أو مؤسسة أهلية أو حكومية من وجود هذه العناصر الخارجية^(٣).

ثالثاً : الأوضاع الاجتماعية :

١. الأسرة والمجتمع :

كانت الأسرة في الماضي القريب تعيش في منزل واحد، وتتكون آنذاك من الأجداد إن وجدوا، والآباء، والأحفاد، والجد أو الأب الأكبر هو رئيس العائلة، فلا يتخذ قرار هام مثل: سفر، أو زواج، أو إقامة وليمة، أو القيام بأمر ما من أي فرد من أفراد العائلة إلا بعد أخذ رأي وموافقة كبير الأسرة. وأحياناً تكون بعض الأسر في مكان واحد، وتعيش في دار واحدة، وتتعاون فيما بينها على كسب أرزاقهم. والرجال غالباً يعملون خارج البيت، والنساء يعملن

(١) حركة التنمية في منطقة الباحة لا بأس بها لكن لازالت تحتاج إلى جهود كبيرة من أجل النهوض بالمنطقة وتطويرها حتى تتساوى مع المناطق الأخرى المتحضرة والمتطورة في المملكة .

(٢) هذا ما لمسّه الباحث، وقابل بعض الأسر والرجال الذين تركوا المدن الكبرى وعادوا إلى بلادهم. وأعتقد أن نسبتهم لازالت قليلة، لأن منطقة الباحة لازالت تعاني من بعض القصور في مجالات التنمية مثل: القطاع الصحي، والمطارات، والمياه وخدمات الصرف الصحي وغيرها .

(٣) هذه العمالة غير مستقرة، وتعيش في المنطقة ضمن قوانين سنتها الدولة، لكنهم شكلوا شريحة كبيرة في الحياة السكانية . وجميع مدن وحواضر وقرى وأرياف المملكة تعيش الوضع نفسه واختلاط هذه الأجناس الوافدة مع سكان البلاد الأصليين جعلهم يؤثرون ويتأثرون في الحياة الاجتماعية والحضارية و دراسة علاقة هذه العمالة بأهل البلاد الأصليين، والآثار المترتبة على ذلك موضوع يستحق الدراسة والبحث الأكاديمي الجاد .

في البيوت ويساعدن رجالهن في الأعمال الخارجية مثل: أعمال الزراعة، والرعي، والاحتطاب وغير ذلك^(١). وكان أهل السراة يعملون في الزراعة إلى جانب الرعي وجمع الحطب، والوضع نفسه عند أهل تهامة، أما البوادي فعملهم الرئيس رعي مواشيه ومتابعتها^(٢).

ومجتمع القرية الواحدة يتكون من أسر عديدة يجتمعون أحياناً في جد واحد، وقد تعيش أسر عديدة في القرية وأجدادهم مختلفون، إلا أنهم ينسبون إلى قبائل أزدية قحطانية، وربما عاشت بعض الأسر العدنانية إلى جوار هذه الأسر القحطانية^(٣). وكل مجتمع قروي يوجد عند سكانه العديد من الأعراف والنظم التي تساعدهم على التجاور والتعاون والتعايش، والعشيرة الواحدة تتألف من عدد من الأسر والقرى التي يجمع بينها رابط النسب أو الجوار أو الحلف. وهكذا كان نظام حياة سكان منطقة الباحة في القرون السابقة^(٤).

التمدن والتطور الذي تعيشه منطقة الباحة خلال العقود الثلاثة الماضية جعل أفراد الأسرة الواحدة وأفراد المجتمع القروي أو العشائري الصغير يتغير، فلم يصبح هناك اجتماع وتألف وتقارب كما كانوا في السابق، وذلك لأسباب عديدة نذكر أهمها في النقاط التالية:

- أ. وفرة المال في أيدي الناس جعلتهم يتفرقون في السكن وبناء الدور، فنادراً ما تجد الابن بعد زواجه يبقى ساكناً مع والده، وإنما يسعى إلى بناء منزل خاص به وأبنائه، أو يستأجر بيتاً مستقلاً.
- ب. تكاثر أفراد الأسرة، ورغبة الرجل في الاستقلال بزوجته ومنع اختلاطها مع غير المحارم^(٥)، وأحياناً ضيق النفوس فالأخ أو الأخت كل منهما يفضل العيش بمفرده وفي مكان منفصل عن الآخر.

(١) دراسة تاريخ الأسرة في منطقة الباحة موضوع هام، ويستحق أن يكون موضوع بحث علمي أو رسالة أكاديمية.

(٢) هذا ما سمعه الباحث من بعض الغامدين والزهرانيين الذين عاصروا حياة الناس في النصف الثاني من القرن (١٤/٢٠م). كما أن الباحث عاصر الوضع نفسه في منطقة عسير خلال التسعينيات من القرن الهجري الماضي.

(٣) من خلال تجوالنا في أجزاء من تهامة وسراة منطقة الباحة وجدنا بعض الأسر العدنانية، وهم قليلون، يستوطنون بعض القرى التي جل سكانها من الأزد. مشاهدات الباحث في شهر ذي الحجة عام (١٤٣٢هـ/٢٠١٢م).

(٤) حياة القرى والعشائر الغامدية والزهرانية في الماضي يسودها الترابط والتعاون والتكاتف، وشيخ العشيرة أو القبيلة هو صاحب الحل والربط بين أفراد قبيلته، وهناك الكثير من الوثائق الاجتماعية التي تعكس نظام حياة الأسرة والمجتمعات العشائرية في المنطقة. ودراسة التاريخ الاجتماعي للمنطقة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م)، أو أي قرن سابق لذلك موضوع جدير بالبحث والدراسة ويستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو أطروحة علمية.

(٥) إلى نهاية القرن الهجري الماضي كان الاختلاط سائداً بين الناس، فالنساء لا يغطين وجوههن، ويجالسن الغريب وغير المحرم، ويعملن مع الرجال في ممارسة المهن الاقتصادية المختلفة. ومنذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) نشطت الدعوة والتعليم بين الناس وبدأ النساء تدريجياً يلبسن الحجاب، ولم يأت العقد الثاني من القرن نفسه، إلا وجميع النساء متحجبات، ومجتمع النساء منفصلاً عن المجتمع الرجالي. هذا ما سمعه الباحث في الباحة وشاهده في أرجاء منطقة عسير خلال تسعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م).

ج - اتساع القرى والمدن، واختلاط الناس بعضهم ببعض، والسفر خارج المنطقة أو داخلها من أجل العمل في بعض الوظائف، أو التعليم . والسفر للوظيفة والتعليم والتعلم لم يصبح مقصوراً على الرجال فقط، وإنما شمل شريحة من النساء، وهذا ساعد في تمتد الأسر وتأثرها، وقد لا يلتقون إلا في المناسبات، وأحياناً تمر الشهور والسنوات ولا يتقابلون^(١).

٢. العمارة ومرافقها :

أ. القرى والمدن :

شاهدنا مئات القرى المتناثرة في سروات زهران وغامد، وفي بوادي غامد، وفي الأجزاء الشمالية الممتدة من غامد الزناد جنوباً إلى قرية الحجر شمال تهامة زهران، وفي مدينة المخوة، وأسفل شدا الأعلى والأسفل، وفي وادي الأحسبة ونيرا. وقد خرجنا بانطباعات عامة ندرج أهمها في النقاط التالية:

١. جميع القرى مبنية بالحجارة، ولا يوجد في منطقة الباحة قرى مشيدة بالطين كما هي في بلاد زهران، وأجزاء من مناطق عسير وجازان ونجران^(٢)، والقرى تبنى على مساحة ضيقة من الأرض، وتشييد على ضفاف الأودية، وهناك قرى كثيرة في رؤوس الجبال، ومنازل القرى متلاصقة بعضها مع بعض، وتتراوح ارتفاعاتها من دور إلى دورين، وربما وصل بعضها إلى أربعة أو خمسة أدوار وبخاصة منازل الأعيان والشيوخ والوجهاء وأصحاب المال^(٣).

٢. الملاحظ على معظم القرى وجود بعض الأزقة (المساريب: جمع مسراب) التي تربط أجزاء القرية بعضها ببعض، وهي ممرات ضيقة يستخدمها المارة أثناء التنقل في القرية، والظاهر على هذه الطرقات أنها ضيقة فلا يزيد عرض الزقاق الواحد عن متر وربما وصل إلى مترين في بعض الأماكن، كما أن كل قرية يتوسطها مسجد، وجميع مواد بناء القرية محلية، ونادراً ما تستورد شيئاً من خارج المنطقة^(٤).

(١) مقارنة وضع الأسر والمجتمعات بين الماضي والحاضر، ففي الماضي كانوا يعيشون في وئام وتآلف وتراحم وتأزر وتكاتف، مع أن ظروف المعيشة كانت صعبة وقاسية . أما اليوم فأصبحوا في أوضاع اقتصادية وثقافية وتعليمية وصحية أفضل من السابق، إلا أن الجانب المعنوي الاجتماعي الإيجابي أصبح ضعيفاً، فتجد أحياناً القطيعة والبغضاء بين أفراد الأسرة أو المجتمع الواحد، بل تصل الأمور أحياناً عند بعض الأفراد إلى الكراهية، وهذه أمور خطيرة تؤدي إلى هدم الأسر والمجتمعات .

(٢) مشاهدات الباحث في مناطق الجنوب (جازان، ونجران، وعسير، والقنفذة، والباحة) خلال الثلاثين عاماً الماضية .

(٣) مشاهدات الباحث وجولاته في شهر ذي الحجة عام (١٤٢٣هـ / ٢٠١٢م) .

(٤) تاريخ القرى الغامدية والزهرانية تستحق أن يفردها لها دراسة علمية موقّعة بالصورة . ونأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين فيتولاها بالبحث والتوثيق .

٢. أصاب الكثير من قرى السراة الخراب، وهناك قرى كثيرة اندثرت تماماً ولم يبق إلا أثرها، بعكس قرى تهامة فلا زال الكثير منها متماسك العمارة مع أنها مهجورة، وهي في طريقها إلى الدمار.

٤. تفتقد القرى القديمة إلى بعض المرافق الرئيسية مثل الحمامات، والمطابخ المستقلة، ويحيط ببعضها أحواش من الحجارة، وأحياناً تشيد بعض الملاحق القريبة من المنزل الرئيس، وذلك من أجل استخدامها مخازن لبعض الأعلاف أو سكناً للحيوانات، وقد تستخدم للنوم أحياناً^(١).

٥. عرف سكان تهامة بعض القرى المبنية من القش والأخشاب، أما سكان البوادي فكانوا بدواً رحلاً وإذا مكثوا في مكان ما فإنهم يبنون تجمعاتهم السكنية من بيوت الشعر^(٢).

وقد قامت قرى وبلدات ومدن حديثة في المنطقة، والناظر إلى مدن الباحة، وبلجرشي، والمندق، والمخوة، وقلوة. أو إلى بعض الأحياء في حاضرة الباحة مثل: الظفير، أو بني ظبيان، أو العقيق، أو رغدان. أو إلى أي قرية صغيرة أو كبيرة في المنقطة، فإنه يلحظ ما يلي:

١. جميع منازل المدينة أو القرية الحديثة مسلحة، وتتراوح أدوارها من دور واحد إلى خمسة وستة أدوار في القرى والمراكز الفرعية، وربما وصلت بعض الأبنية في مدينتي الباحة وبلجرشي إلى ثمانية وعشرة أدوار، وهي قليلة^(٣).

٢. مساحة القرى والمدن الحديثة أكبر من مساحات القرى القديمة، كما أنها ذات تخطيط أفضل من القرية، فهناك شوارع واسعة تربط أطراف القرية أو المدينة بعضها مع بعض، وتوجد أيضاً طرق سهلة مسفلتة تربط بين المدن والقرى^(٤).

٣. جميع القرى والمدن والحواضر تشتمل على مسجد واسع، ويجتمع سكان القرية أو البلدة في مسجد جامع تقام فيه صلاة الجمعة، وجميع منازل المدن العصرية تتكون من غرف ومجالس متعددة بالإضافة إلى مطابخ مستقلة وحمامات، ولا تخلو كل مدينة أو قرية من دكاكين أو أسواق تجارية تتفاوت في معروضاتها ومساحاتها وطريقة تشييدها^(٥).

(١) لا توجد هذه المرافق إلا في بيوت الأغنياء والوجهاء والشيخوخ، أما أغلبية منازل القرية فهي متواضعة ومحدودة المساحة.

(٢) ما سمعه الباحث من بعض الرواة في منطقة الباحة، كما شاهد هذا النوع من التجمعات السكنية في منطقة عسير خلال تسعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٣) مشاهدات الباحث في شهر ذي الحجة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) إجراء دراسة تاريخية عمرانية مقارنة بين القرى القديمة أو المدن والقرى الحديثة موضوع جدير بالبحث والدراسة. ونأمل أن نرى أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد فيسجل هذا الموضوع عنواناً لأطروحته في درجتي الماجستير أو الدكتوراه.

٤. تختلف مدن وقرى اليوم عن القرى القديمة، ففي السابق كانت كل قرية مستقلة بذاتها، كما أن أغلب القرى في السابق بُنيت في المرتفعات، أما التجمعات العمرانية في العصر الحديث فتكون متقاربة وأحياناً مترابطة بطرق مسفلتة مضاءة ومرصوفة، والناظر في مدينة الباحة أو بلجرشي مثلاً يجدها تتكون من عدة أحياء كونت الحاضرة بمفهومها الواسع^(١).

ب. المنازل، والحصون، والمساجد:

منازل المنطقة قديماً محدودة في غرفها وفي أدوارها، فالسواد الأعظم تتكون من دور وأحياناً دورين، والدور الأول لسكنى البهائم وخزن الأعلاف، والثاني للسكن وربما خزن الحبوب وبعض الأمتعة والأغراض الثمينة، وأبواب ونوافذ وسقوف المنازل من الأخشاب المحلية، والمشيدون للمنزل من البداية إلى النهاية من سكان المنطقة، وهناك من يعمل بالأجر مثل: البناء، وبعض العمال الماهرين في إصلاح الحجارة^(٢).

كانت إضاءة المنازل سابقاً بدائية، وتقل المياه إليها من الآبار علي ظهور الناس، وأحياناً ينقل الماء في القرب على ظهور الحمير، أما الأثاث فكان بسيطاً، فلا أسرة أو كراسي إلا عند بعض الأسر وغالباً تكون لرب البيت أو كبار السن، وجميع الأثاث محلي، وقد يجلب بعض الأثاث أو أدوات الطبخ من ميناء القنفذة أو أسواق الحجاز^(٣).

أما الحصون والقصور، فالثانية قليلة ومقصورة على التجار والوجهاء وشيوخ القبائل، وقد شاهدنا قصور ابن كدسة في بلجرشي، وقصور ابن رقوش في قرية بني سار من بلاد بني عامر في زهران، ويظهر عليها سعة المساحة، وتعدد المرافق والأدوار، كما يبدو عليها الفخامة في البناء فلها جدر عريضة وأبواب واسعة، وسقف وأعمدة كبيرة وقوية^(٤).

(١) دراسة مدن منطقة الباحة الرئيسية جديرة بالبحث التاريخي، ونأمل أن تستشعر جامعة الباحة هذه المسؤولية فتؤسس مراكز بحثية تقوم بواجباتها البحثية كما يجب .

(٢) يقدم صاحب المنزل الأطعمة والأشربة للعاملين في البناء والتشييد لمنزله . وكان أهل القرية الواحدة يتعاونون فيما بينهم أثناء بناء منازلهم . كما أن البناء نفسه يساعد صاحب البيت بإعفائه من أجرة عدد من الأيام . معاصرة الباحث لهذا النوع من التعاون في أجزاء من منطقة عسير . كما سمع هذه الروايات من بعض الزهرانيين والغامدين أثناء تجواله في بلادهم .

(٣) عثر الباحث على بعض الوثائق الاجتماعية والاقتصادية التي تشير إلى شراء بعض الأدوات والأثاث الذي يستخدم في البيوت من الأسواق الأسبوعية ومن أسواق الحجاز . كما سمع روايات بهذا المعنى من بعض المسنين في منطقة الباحة .

(٤) مشاهدات الباحث في شهر ذي الحجة عام (١٤٢٢هـ/٢٠١٢م) . يوجد في منطقة الباحة (تهامة والسرارة) العديد من القصور وبخاصة بيوت الوجهاء وشيوخ القبائل، ولازال أكثرها قائماً ويجب ترميمها وحفظها من الاندثار . كما تستحق إلى أن يجري عنها العديد من الدراسات الأكاديمية .

أما الحصون فلازلنا نشاهدها متناثرة في أرجاء المنطقة، ومنها ما يوجد وسط القرى وكان يستخدم لخرن الحبوب الخاصة بأفراد القرية، والحصون القريبة من المزارع وتستخدم لغرض حراسة الأراضي الزراعية، أما الحصون الموجودة على رؤوس الجبال فتستخدم للمراقبة الأمنية، وأحيانا تستخدم أثناء الحروب القبلية، وقد لاحظنا تعدد هذه الحصون في بوادي وسروات تهامة المنطقة، وتستحق الاهتمام والعناية من قبل الهيئة العليا للسياحة، ونأمل أن تحفظ وترمم حتى لا تندثر^(١).

لا تخلو أي قرية من مسجد يتوسطها، والغالب على المساجد قديماً ضيق مساحتها وارتفاعها محدود فلا يزيد عن مترين، ولا يوجد بها خدمات مثل: أماكن للوضوء وحمامات، كما أن فرشها بسيط، وأحيانا تكون دون فرش ويكتفى بالتراب، وإضاءتها بالقناديل البدائية، وأحيانا كانت تستخدم الفوانيس القديمة في إضاءتها ليلاً^(٢).

لا يوجد وجه مقارنة للمنازل والقصور في وقتنا الحالي بما كانت عليه في السابق، فالذهاب في أرجاء المنطقة يجد منازل واسعة في مساحتها وتعدد ملاحقها، كما يجدها فخمة في مواد بنائها وتزويقها، ناهيك عن أثاثها وإضاءتها وتشبيد حماماتها ومطابخها فهي على قدر كبير من الجودة، وإن نظرت في أبوابها ونوافذها وجدتها واسعة، ومواد بنائها جميلة، والفارق بين مواد البناء والعاملين في مهنة البناء والتشييد قديماً وحديثاً أنها محلية في العمارة القديمة، أما اليوم فالأيدي العاملة والمواد جميعها مستوردة من خارج حدود البلاد السعودية، وبعض المواد قد يكون مصنوعاً داخلياً لكن المواد الخام الرئيسية مستوردة من الخارج^(٣).

أما المساجد اليوم فلا تقارن مع السابق، وبناء المساجد علامة مميزة في تاريخ المملكة العربية السعودية، فالذهاب في أنحاء البلاد يجد منظومة كبيرة من المساجد التي تتفاوت في أحجامها ومساحاتها، بل يجدها تشتمل على جميع الخدمات الرئيسية مثل: الحمامات، والإضاءة والأثاث الممتاز، ومواقف للسيارات، وأماكن لتدريس القرآن، وأحيانا مساكن للإمام والمؤذن في الجوامع الكبرى^(٤)، ومن خلال تجوالي في المنطقة

(١) هذه الحصون من المعالم الحضارية التي تعكس صور من تاريخ الأوائل ويجب على ملاك هذه الحصون أن يحافظوا عليها من الخراب . كما يجب على الهيئة العليا للسياحة أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل الحفاظ على هذا الموروث العمراني .

(٢) وقضت على بعض المساجد القديمة في قرى الباحة وبلجرشي، وبعض قرى سرات زهران، وفي المخوة وقلوة وغامد الزناد، فوجدتها خربة مندثرة مثلها مثل منازل وحصون القرى القديمة . بل وجدت على جدر بعضها نقوشاً تذكر تاريخ بناء المسجد، وأحيانا اسم الباني للمسجد أو من قام على تشييده . مشاهدات الباحث في شهر ذي الحجة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) .

(٣) تاريخ العمارة قديماً وحديثاً جدير بالبحث والدراسة . نأمل أن نرى أحد طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا السعودية وقد اتخذ موضوع العمران في جنوبي البلاد السعودية موضوعاً لدرجة الدكتوراه.

(٤) تاريخ المساجد في المملكة العربية السعودية جدير بالبحث والدراسة، ويجب أن يصدر عن هذا الموضوع عشرات الكتب والدراسات ونأمل من الجامعات السعودية أن تلتفت لمثل هذا الموضوع العلمي الهام .

اطلعت على عدة مساجد متوسطة المساحة بالإضافة إلى جوامع كبيرة مثل: جامع الملك فهد في حي الظفير، وجامع الفاروق وسط مدينة الباحة، وجامع بني سار في بني سار من سراة زهران، وجامع الأمير محمد بن سعود في بلجرشي، وجامع الأطاولة في محافظة القرى، وجامعا أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب في محافظة المخوة، وجامع الملك عبد الله في محافظة قلو^(١).

ج- المقابر، الكهوف، الأسواق :

لاحظنا المقابر منتشرة في أرجاء منطقة الباحة (بادية وسراة وتهامة)، وقامت البلديات بجهود مشكورة في تسوير المقابر بالبلك والخرسانة المسلحة، وهناك بعض المقابر المسورة بسياج حديدي^(٢)، وقد شاهدنا في أجزاء عديدة من سراة وبادية غامد العديد من المقابر السطحية، والتي يصل ارتفاع بعضها إلى مترين، بل تتكون أحيانا من دور ودورين^(٣)، ومن تلك المقابر مقبرتان في جبل مهران وقبور الزينات في بادية غامد فارتفاع بعضها يصل إلى المتر، والمتر والنصف، والمترين، ومساحتها تقريبا بين (٢×٢م) و(٢×٢م)، ومبنية من الحجارة المحلية، وبعض القبور منقوش بالمرى الأبيض^(٤)، ومعظمها على اتجاه القبلة، وقليل منها غير ذلك، وربما يعود بناء مثل هذه المقابر السطحية إلى عدة أسباب هي:

١. أصحابها كانوا من البدو الرحل وليس لديهم أدوات حفر يحضرون بها الأرض لدفن موتاهم، لذا لجأوا إلى بناء هذه القبور التي يتسع بعضها لخمس وأحيانا لعشر جثث .
٢. عدم بناء بعضها على اتجاه القبلة وذلك يعود إلى جهل أهلها ببعض تعاليم الإسلام.
٣. بعض القبور التي شاهدناها في بادية غامد ليس حولها أماكن استيطان، ومن المؤكد أن أهلها كانوا من البدو وبيوتهم من الشعر فهم لا يستقرون في مكان واحد وإنما يسعون وراء الماء والكلاء.

(١) مشاهدات الباحث في شهر ذي القعدة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م). وأجرى دراسة مقارنة بين تاريخ المساجد في القديم ومساجد وجوامع اليوم، موضوع جدير بالدراسة والاهتمام، ونأمل أن نرى من يتول هذا الموضوع بالبحث والدراسة والتحليل الأكاديمي .

(٢) مشاهدات الباحث في نواح عديدة من الأجزاء التهامية والسروية في شهر ذي الحجة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) .
(٣) تجولنا في قرى سراة غامد وأجزاء من زهران فشاهدنا تواجد المقابر السطحية في كل مكان، وهذه ظاهرة لم نشاهدها في مناطق أخرى من جنوب البلاد السعودية . اللهم إلا في أماكن محصورة وقليلة في عسير وأجزاء من نجران . مشاهدات الباحث خلال الثلاثين عاما الماضية .

(٤) المرى الأبيض : اسمه في علم الجيولوجيا (الكوارتز) . وفي علم الكيمياء (أكسيد السليكون) . وهذا النوع من الحجارة يستخدم كزينة للأبنية في جنوب البلاد السعودية، مثل : القصور، والحصون، والمنازل، والمقابر، وأحيانا المدرجات الزراعية وغيرها . مشاهدات الباحث خلال العقود الماضية المتأخرة .

كان لكل قرية أو قرى متجاورة وتعود في نسب واحد مقبرة خاصة بهم، وأحياناً تجد لبعض الأسر مقابر تخصها ولا تسمح لأحد من خارج أسرهم الدفن فيها، ولا زالت بعض المقابر على هذا النهج إلى يومنا الحالي . كما وجد مؤخراً مقابر عامة وبخاصة في المدن والحواضر الكبرى، فهي لكل الناس يدفنون فيها موتاهم^(١).

لا تخلو بوادي وأصدار منطقة الباحة من الكهوف الصخرية التي سكنها الإنسان قديماً، وأحياناً كانت الوحوش المفترسة تسكن في بعض الكهوف^(٢)، وقد شاهدنا كهفاً في بادية بني كبير ببلاد غامد، وفي وادي الساق تحديداً فكان عبارة عن مغارة كبيرة في الصخر يصل طوله تقريباً إلى عشرة أمتار، وعرضه في المقدمة تقريباً ثلاثة أمتار، وكلما اتجهنا إلى الداخل يضيق العرض حتى يصل إلى متر أو متر ونصف تقريباً^(٣). وهذا الكهف يحيط به الصخر من جميع الجهات، وبداخله آثار للسكنى^(٤).

كانت الأسواق الأسبوعية في كل ناحية أو عشيرة من منطقة الباحة (تهامة وبادية وسراة)^(٥)، وكان لكل سوق أنظمة وقوانين يسنها ويتولى تفعيلها العشيرة أو العشائر التي يوجد السوق في أرضها^(٦)، والسوق قديماً يقام بساحة مكشوفة في إحدى النواحي أو القرى التي يتبع لها السوق، وقد وقفنا على العديد من الأسواق القديمة في سراة وتهامة غامد وزهران، ولتشابه الأسواق في المكان والعرض، وضيق المساحة المخصصة لهذا المحور نذكر وصفاً موجزاً لسوق الحجر في محافظة الحجر في شمال تهامة زهران^(٧)، فهذا السوق يقع في أرض قبيلة الشغبان، ومساحته تقريباً (١٠٠ × ١٠٠ م)، وفي طرفه حصن من ثلاثة طوابق، وجزء منه مساحة مكشوفة وعلى جوانبه دكاكين صغيرة مبنية بالحجارة ومساحة الواحد منها يتراوح ما بين (٢×٢م) و(٣×٢م)، وارتفاعها تقريباً مترين ونصف ومسقوفة بالخشب، ولها أبواب بمقاس (٢×١م)، وهذا السوق يقع عند أسفل هضبة شمالية تعلوها قرية تتراوح منازلها من (٢٠ إلى ٣٠) منزلاً، ولتلك القرية نوافذ

- (١) دراسة المقابر القديمة في منطقة الباحة ثم مقارنتها مع المقابر الحديثة موضوع جدير بالاهتمام والبحث . ونأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين من بلاد الباحة فيتولى هذا المحور بالدراسة والبحث العلمي الأكاديمي الموثق .
- (٢) يوجد في منطقة الأصدار العديد من الكهوف التي كانت تسكنها السباع، وربما اتخذت مقراً للراحة من بعض القاطنين أو المسافرين عبر بلاد الأصدار. مشاهدات الباحث في نواحي عديدة من مناطق الباحة وعسير وجازان خلال السنوات القليلة الماضية .
- (٣) مشاهدات الباحث في شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .
- (٤) حبذا أن نرى أحد الباحثين الجادين فيقوم بدراسة تاريخ الكهوف في بلاد تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة والحديثة . وهذا الموضوع جدير بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية .
- (٥) سوف نذكر أسماء العديد من الأسواق الأسبوعية القديمة في منطقة الباحة، في الصفحات الخاصة بالأوضاع الاقتصادية في نهاية هذا القسم، وفي محور التجارة تحديداً.
- (٦) يوجد لدى الباحث مئات الوثائق الخاصة بالأسواق الأسبوعية القديمة في كل من الباحة وعسير وجازان والقنفذة ونجران . وجميع هذه الوثائق تدور في فلك القرنين (١٤٠١٣هـ/٢٠١٩م)، وقد يأتي اليوم الذي نخرجها في كتاب أو دراسة مستقلة . .
- (٧) زيارة الباحث لهذا السوق في أوائل شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) .

صغيرة ، والملاحظ على هذه القرية والسوق علامات الخراب والاندثار بسبب هجرة أهلها^(١)، ومن خلال مشاهدتنا لهذه السوق والقرية المحيطة به، وكذلك أسواق أخرى عديدة ومشابهة لسوق الحجرة، نخلص إلى النقاط التالية :

١. الأسواق الأسبوعية القديمة تشتمل على أرض مكشوفة ودكاكين صغيرة في أجزاء من السوق، وهذه الدكاكين لملاك مقيمين وأحياناً تستأجر من أصحابها للبيع والشراء في بعض السلع المتنوعة.
٢. الأسواق تكون دائماً قريباً من القرى، وأحياناً تكون في مكان متوسط من أرض العشائر التي تملك السوق وترتاده .
٣. جميع مواد البناء في الأسواق محلية مثلها مثل مواد بناء القرى والحصون وغيرها.

د. الآبار، والسدود والمصدات، والعيون، والمدرجات الزراعية، والأحمية :

الآبار من المصادر المائية الرئيسية في حياة سكان منطقة الباحة، فلا تخلو قرية، أو واد أو ناحية بدوية أو سرورية أو تهامية من وجود آبار جوفية، يقوم على تعيين أماكنها وحضرها أهل البلاد، وتتراوح أطوالها من (٢٠.٥٠م)^(٢). ويتعاون سكان القرى فيما يخصهم من آبار، وحضرها يكون بشكل أسطواني دائري، وأحياناً على شكل مربع، وعند الانتهاء من الحفر يتم بناء الجزء العلوي منها بالحجارة حتى لا يتساقط التراب في البئر مرة أخرى، وكل بئر يوضع لها شارة: تدل عليها كبئر، وتستخدم السواني أثناء رفع المياه من الآبار، وكل بئر يعمل في أحد أطرافها العلوية حوضاً يسمى (القف)، وكذلك ممر يسير فيه الحيوان (الأبقار وأحياناً الجمل) أثناء رفع الماء للشرب وري المزارع^(٣).

ومن خلال جولاتنا في منطقة الباحة والوقوف على بعض الآبار الجوفية اتضح لنا عدد من الأمور نذكر أهمها :

١. معظم الآبار الجوفية جفت وغارت مياهها، وربما كان الجفاف وعدم سقوط الأمطار من أهم العوامل التي أدت إلى هذا الوضع، ثم إن كثيراً من الناس قام بحفر آبار ارتوازية تصل أطوالها إلى عشرات أو مئات الأمتار، وهذا تسبب في تسرب مياه الآبار الجوفية، كما أن بعض مالكي الآبار القديمة قام بإجراء بعض الحفريات وتعميق آبارهم مع استخدام بعض المتفجرات (الديناميت) وهذا أيضاً مما خلخل الصخور وساعد في نضوب وتسرب مياه الآبار الجوفية.

(١) مشاهدات الباحث لسوق الحجرة في (٢/١٢/١٤٢٣هـ) .

(٢) الذهاب في أرجاء جنوب الجزيرة العربية من مكة والطائف إلى أقصى اليمن يجد طريقة حفر وبناء الآبار متقاربة ومتشابهة في هذه النواحي . وقد شاهدنا مئات الآبار من صنعا إلى الطائف، ولازال بعضها يستخدم إلى وقتنا الحاضر، وتواريخ البعض منها يعود إلى الماضي بمئات السنين .

(٣) في العقود الماضية المتأخرة حلت المكائن والآلات التي ترفع المياه بدلاً من استخدام الحيوانات، ولم نعد نرى استخدام الحيوان في هذه المهنة . مشاهدات الباحث خلال الثلاثين عاماً الماضية .

٢. لازالت بعض الآبار تستخدم في الشرب والزراعة، وذلك لتوفر المياه بها، ويعود ذلك إلى وقوعها في بطون الأودية أو قريبا من بعض العيون والمياه الجوفية الجارية، ومثل هذه الآبار يطلق عليها اسم (العِدِّ) وذلك لوفرة مياهها وغزارتها، ونلاحظ بعض الوايات وتجار المياه الذين يقومون بنقل مياه هذه الآبار إلى المنازل والقرى المتأثرة في منطقة الباحة في يومنا الحاضر^(١).

٣. بعض الآبار قريبة من التجمعات السكانية في المدن والقرى، وأدى هذا إلى تسرب مياه الحمامات ودورات المياه إلى هذه الآبار، ومن ثم أصبحت غير صالحة للشرب، وأحيانا كثيرة لا تصلح لري المزارع والخضروات التي تزرع حولها أو قريبا منها^(٢).

٤. جميع الآبار الجوفية الموجودة في عموم منطقة الباحة لها أسماء، فقد تسمى باسم القرية أو المكان الذي وجدت فيه، وقد تسمى باسم امرأة أو رجل، وأحيانا تسمى باسم جبل أو وادي، ومصطلحات أخر عديدة تطلق على الآبار المتأثرة في طول وعرض البلاد.

لم نسمع في السابق عن السدود بمنطقة الباحة سوى القليل أو النادر، وذلك لعدم الإمكانات قديما وكذلك وجود العديد من العقبات التي تقابل بناء السدود. وفي السنوات الأخيرة قامت وزارة الزراعة بإنشاء العديد من السدود في منطقة الباحة من أجل حفظ مياه الأمطار، وتزويد المدن والقرى بالمياه عن طريق تركيب مضخات على بعض السدود بعد إجراء التنقية والتعقيم اللازم، ومن السدود التي تم بناؤها : سد وادي الجنابين، وسد قذانة، وسد الطلعية، وسد القمع، وسد الأجاعدة في محافظة بلجرشي، وفي حاضرة الباحة : سد وادي المدد، وسد وادي ثراد، وسد وادي العقيق ويوجد عليه محطة تحلية مياه لتزويد مدينة الباحة وما جاورها بالمياه النقية، وفي تهامة سد الحجر في محافظة الحجر، وسد وادي الأحسبة، وسد الملح شرق المخواة^(٣).

وفي بعض أودية تهامة القريبة من المدن الرئيسية مثل: المخواة، وقلوة وغيرها وجدنا مصدات أسمنتية مسلحة في بعض الأودية، وذلك من أجل حماية القرى أو المدن القريبة منها من سيول الأودية أثناء هطول الأمطار، وتتراوح أطوال هذه المصدات من مئة إلى ثلاثمائة وأربعمائة متر، وارتفاعها من (٤.٢م)، وعند سؤال السكان القاطنين قريبا

(١) شاهد الباحث بعض الوايات (١٦) طن و(١٤) طن تنقل المياه من بعض الآبار إلى المنازل بأسعار تتراوح من (٢٠٠.١٠٠) ريال.

(٢) هذه المشكلة تكاد تكون سائدة في أنحاء المملكة العربية السعودية، فهناك الكثير من الآبار داخل المدن والقرى، لكن مياهها لا تصلح للاستخدام الأدمي أو ري المزروعات.

(٣) وقف الباحث على بعض هذه السدود فوجدها مليئة بالماء، وتقوم بخدمات عديدة أشرنا إلى بعضها في المتن أعلاه، بالإضافة إلى ري المزارع القريبة من بعض السدود، ونقل المياه أحيانا بواسطة الوايات لري بعض المزروعات وسقي البهائم في القرى والمدن. مشاهدات الباحث في منطقة الباحة من (٢٩/١١-٩/١٢/١٤٣٣هـ).

من هذه المصادر عن مدى فاعليتها أشاروا إلى أهميتها في حماية بيوتهم وعقاراتهم وأملاكهم من سيول الأودية عند سقوط الأمطار^(١).

لا تخلو منطقة الباحة من القنوات والعيون المائية التي استخدمها الإنسان في ري الزراعة، وسقيا بهائمهم، واستخداماته اليومية^(٢). وفي قرية ذي عين الواقعة في أسفل عقبة الباحة المخواة^(٣)، عين تجري عند أسفل القرية وهي تتبع من سفوح الجبال المطلية على القرية، والملاحظ أن الجزء العلوي من العين مغطى بالحجارة، ومياهها تتجه غرباً، فتسقي مزارع الموز والأشجار المثمرة في بطن الوادي^(٤).

والمدرجات الزراعية من المعالم العمرانية التي عرفها سكان المنطقة، فالسائر في أنحاء البادية والسرارة وتهامة يشاهد آلاف القطع الزراعية التي تحيط بها الأسوار لحفظ تربتها ومياهها^(٥). ولازلنا نشاهد المدرجات متناثرة في أنحاء البلاد وهي مبنية من الحجارة وتتراوح ارتفاعاتها من (٤.١م)^(٦).

والأهمية العامة والخاصة من المظاهر الحضارية التي عرفتها غامد وزهران، فقد كان الناس في الماضي يمارسون مهن الرعي والصيد والاحتطاب، ومن ثم كان لكل عشيرة أو قرية حمى خاص يحمي في بعض أيام أو شهور من السنة، وعند الحاجة إليه يتم الرعي وجمع الحطب من تلك الأهمية. والذاهب في بعض أرجاء المنطقة يشاهد آثار بعض الأهمية في الجبال والشعاب والأودية، وطبيعة الحمى أنه يحاط بأسوار حجرية يصل ارتفاعها إلى متر ومترين^(٧)، وقد عثر الباحث على العديد من الوثائق التي تنص على حفظ بعض الأهمية وحراستها، ومتى تستخدم ومتى تمنع من الاستخدام، ومن هم المسؤولون عن الحمى، إلى غير ذلك من القوانين والأنظمة العرفية التي تعارف عليها أصحاب الحمى^(٨).

- (١) مشاهدات الباحث لبعض هذه المصادر في أودية مدينة المخواة وما جاورها في (١٤٢٣/١٢/٤هـ).
- (٢) من خلال جولتنا في المنطقة وجدنا آثار بعض العيون المندثرة في بوادي وسرارة غامد وزهران.
- (٣) هذه القرية مبنية على هضبة من صخور الجرانيت، ويزيد عدد منازلها عن (١٠٠) منزل، وارتفاع بعضها إلى أربعة وخمسة طوابق، بالإضافة إلى المرافق الملحقة ببعض المنازل مثل المسجد والأفنية وغيرها. مشاهدة الباحث في (١٤٢٣/١٢/٢هـ).
- (٤) لازالت العين جارية حتى الآن، وهذه القرية تعد من المعالم الهامة والرئيسية في بلاد تهامة والسرارة، وليس هناك اهتماماً أو رعاية بها والمسؤولية لمقاة على عاتق إمارة الباحة وعلى الهيئة العليا للسياحة فتقوم على صيانتها وتوفير الخدمات اللازمة لها حتى تتحول إلى معلم سياحي حضاري يرتاده زوار منطقة الباحة وغيرهم.
- (٥) المدرجات الزراعية من الأبنية التي عرفها سكان جنوب الجزيرة العربية، وذلك لأن معظم الأراضي الزراعية توجد في الجبال وسفوحها وفي جوانب الأودية، فكان على الإنسان أن يحيط مزارعه بالجدر والمدرجات العمرانية التي تحفظ حدود وتربة المزرعة.
- (٦) دراسة تاريخ المدرجات في بلاد تهامة والسرارة موضوع جدير بالبحث، ونأمل أن يكون موضوعاً لرسالة ماجستير أو دكتوراه في أحد أقسام التاريخ في جامعاتنا السعودية.
- (٧) مشاهدات الباحث وجولاته في منطقة الباحة من (١٤٢٣/١٢/٨. ١١/٢٩هـ).
- (٨) يوجد في مكتبة الباحث مئات الوثائق الخاصة ببعض الأهمية وأنظمتها في جنوبي البلاد السعودية (الباحة، وعسير، وجازان، ونجران). وهذا الموضوع يستحق إلى أن يكون عنواناً لدراسة أو رسالة علمية أكاديمية موثقة.

وإذا نظرنا في العمارة الحديثة في منطقة الباحة، وجدناها شملت كل جانب من جوانب التنمية الحضارية، فهناك المدن والقرى، وبها المنازل والقصور، والشقق المفروشة، والفنادق، والمؤسسات الحكومية والأهلية. وبها أيضاً الأسواق التجارية المتفاوتة في أحجامها ومساحاتها، والمراكز الطبية والصناعية، والمشاريع السياحية، كما نشاهد الطرق البرية المسفلتة داخل المدن والقرى وخارجها، وهناك بعض المعالم العمرانية الكبيرة في المنطقة مثل: مباني الإمارة والمحافظات في الباحة وبلجرشي وغيرهما، ومباني البلديات في بعض مدن المنطقة، ومباني جامعة الباحة داخل المدينة، وفي المدينة الجامعية في محافظة العقيق، والمطار، والمستشفيات الرئيسية في الباحة وبلجرشي، وغيرها من أنواع العمارة المتنوعة في أحجامها وأهداف استخدامها، ومساحاتها وطريقة تشييدها^(١).

٣- الأظعمة والأشربة :

كانت أظعمة أهل الباحة قديماً من ناتج مزارعهم، والأسرة في المنزل تعتمد بشكل رئيس على البر (الحنطة) والذرة وأحياناً الشعير في السراة، والدخن والذرة في تهامة، أو ما تحصل عليه بعض الأسر من أبقارها وأغنامها مثل: اللبن والسمن^(٢)، وهناك أظعمة تجلب من الأسواق الأسبوعية كل أسبوع أو كل شهر مثل : اللحم والتمر^(٣).

من الأظعمة التي عرفها الغامديون والزهرانيون ما يلي :

أ- العصيدة، واللبزة، والقرصان، والأولى : من دقيق البر أو الذرة أو بهما معاً في ماء مغلي، والثانية أشبه بالعصيدة، لكنها تعمل من القرصان بعد لبزها، أما القرصان فتصنع من دقيق البر وتوضع في صاج من الحديد حتى تنضج .

ب- الخبزة : والدغابيس، والمرصوص، والعيش، والكسكية :

الأولى: أكلة شعبية مشهورة وتمتاز بها بلاد زهران، وهي من البر الخالص، وتختلف في حجمها باختلاف المناسبة، وهي بشكل دائري يتراوح قطرها من (٣٠ إلى ١٠٠ سم)^(٤). والدغابيس : أكلة مشهورة عرفها أهل غامد وزهران، وتصنع من البر، وتوضع في المرق

(١) تاريخ العمارة الحديثة في منطقة الباحة يستحق أن يفرده له دراسات علمية أكاديمية . ويجب مقارنة العمارة القديمة مع العمارة الحديثة مع توضيح السلبيات والإيجابيات بين النوعين من العمارة . كما يجب على جامعة الباحة أن تنشئ كلية هندسة للعمارة والتخطيط كي تتولى دراسة عمارة المنطقة، والحفاظ على عمارتها القديمة. المصدر: مشاهدات الباحث وجولاته في منطقة الباحة (١٩/١١-١٢/٩/١٤٣٣هـ) .

(٢) هذه أظعمة أهل البادية الرئيسية، أما أهل تهامة والسراة فكانت من أظعمتهم أيضاً بالإضافة إلى ما يزرعونه في مزارعهم .

(٣) اللحم والتمر لا تملكه كل الأسر، وإنما المقتدرون منهم، وهناك أفراد وأسر لا يستطيعون شراءه لعدم وجود النقود لديهم .

(٤) شاهدها الباحث أثناء جولاته لجمع مادة هذا القسم وأكل منها في عدد من بيوت زهران (٩١/١٢/٩/١٤٣٣هـ) .

حتى تستوي ثم تؤكل^(١). والمرصوص: خبزة تزال قشرتها العليا ثم تقطع وترص مع بعضها البعض، وتسمى (العريكة) في بعض مناطق عسير^(٢). والعيش: أكلة مشهورة في جنوب المملكة، وتصنع من اللبن ودقيق الذرة، وتقدم للضيوف في أنية خشبية تسمى (الصحفة) بقطر يصل إلى (١٠٠ سم)، ويصب عليها السمن والعسل^(٣). والكسكسية من الأكلات المعروفة عند سكان منطقة الباحة، وتصنع من دقيق الذرة، ويتم إعدادها في أوان فخارية مخصصة لها، وتستوي على بخار الماء أو المرق مع اللحم^(٤).

ج- **أطعمة أخرى**: القليّة: وهي من الحب المقلي على النار. والفواكه مثل: الرمان، والعنب، والتفاح، والبرشومي، والتين، واللوز، والبرسيم، والدجر، والبلسن وغيرها.

د- **الأشربة القديمة المتنوعة**، مثل: السمن، واللبن، والعسل، والفريقة المصنوعة من اللبن والدقيق. والسويق المصنوع من سنابل الشعير^(٥). والمرق، والروبة، وهو الحليب الرائب قبل خضه^(٦).

والأطعمة والأشربة السابقة الذكر يغلب عليها أمور عديدة نذكر أهمها:

١. إن جميع الأطعمة والأشربة محلية من نتاج مزارع وحيوانات أهل البلاد، ثم إن القائمين على إعدادها هم أهل البلاد وبخاصة النساء.
٢. كان الطعام والشراب في منطقة الباحة قديماً يسد حاجة الناس، ومن ثم تجدهم في عمل دعوب في مزارعهم ورعي مواشيهم من أجل كسب أقواتهم^(٧).
٣. جميع الأطعمة والأشربة كانت تصنع وتقدم في أدوات وأوان محلية تصنع في محيط جنوب البلاد السعودية، وأحياناً كانوا يستوردون بعض الأواني من أسواق الحجاز ومن ميناء القنفذة وغيره^(٨).

(١) أكل منها الباحث أثناء جولاته في بلاد غامد (٥٣/ ١٢/ ١٤٣٣هـ).

(٢) مشاهدات الباحث وجولاته في جنوبي البلاد السعودية خلال العقود الثلاثة الماضية.

(٣) هذه الأكلة تعرف في بلاد بني شهر باسم (المشغوثة)، ويتفنن سكان بني عمرو وبني شهر في عملها وتقديمها، وهي من الأكلات المفضلة عند كثير من الناس وبخاصة كبار السن.

(٤) تاريخ الأطعمة والأشربة في منطقة الباحة موضوع جدير بالبحث والدراسة نأمل أن يتخذ موضوعاً لرسالة ماجستير في أحد أقسام التاريخ في جنوبي البلاد السعودية.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) هذا ما سمعه الباحث من بعض كبار السن في منطقة الباحة. كما أنه شاهد الأشربة المذكورة أعلاه في مناطق عسير ونجران وجازان، وأحياناً تكون المسميات مختلفة، إلا أن نوع الطعام واحد. مشاهدات وجولات الباحث في جنوبي البلاد السعودية منذ ثلاثة عقود.

(٧) عاصر الباحث جزءاً من حياة الناس القديمة في نهاية القرن (١٤هـ/ ٢٠م)، ومن ثم تجدهم مكتفين ذاتياً في توفير أطعمتهم وأشربتهم.

(٨) زار الباحث بعض متاحف التاريخية والشعبية في مدينتي بلجرشي والباحة أثناء تواجده في المنطقة من (٢٩/ ١١هـ- ١٢/ ١٢هـ)، وشاهد في تلك المتاحف العديد من الأدوات الأثرية التي عرفتها المنطقة وكان بينها بعض الأواني الخاصة بصنع الطعام والشراب وتقديمه.

ما سبق ذكره أطفمة وأشربة قديمة عرفها الأوائل، وهي طعامهم وشرابهم منذ مئات السنين، ومنذ النصف الثاني للقرن (١٤هـ/٢٠م) بدأت الأطفمة والأشربة المستوردة تصل إلى أسواق منطقة الباحة، وبدأ الناس ينوعون مآكلهم، وبخاصة الشيوخ والأعيان وأصحاب المال، ثم تطورت أحوال الناس الوظيفية والتعليمية والمادية، وازدادت أنواع الأطفمة في المنطقة، وصارت تفتح المطاعم التي تقدم بعض الأطفمة، وهكذا استمر الحال حتى فاض الخير على الناس وتعددت المشارب والمآكل، وتوعدت المواد الغذائية التي جلها مستورد من خارج المنطقة، ومن خلال تجوالنا في المنطقة خرجنا ببعض الانطباعات في باب الأكل والشرب مثل :

١. ازدحام المنطقة بالدكاكين (والسوبر ماركت) الخاصة بالبيع والشراء في مواد الأطفمة المختلفة.
٢. تعدد المطاعم (والبوفيهات) والاستراحات والمطابخ الخاصة بصنع الأطفمة، والمتفاوتة في أحجامها، وأماكنها، وأنواع أطعمتها، وأسعارها .
٣. ازدياد الأطفمة والأشربة عند الأسر، وفي المجتمعات، والمناسبات، والولائم، حتى أصبح الإنسان غير قادر على معرفة أسمائها وحصر أنواعها.
٤. جميع الأيدي العاملة في صنع الأطفمة في المطاعم والمطابخ التجارية من العمالة الوافدة من بلدن عربية وشرقية وأحياناً غربية، ونادراً ، نجد سعودياً يعمل في مهنة الطبخ والمطاعم . وكثير من الأسر الغامدية والزهرانية استقدموا عاملات منزليات من خارج البلاد، وأصبح بعضهم يقمن بعمل الأطفمة والأشربة الخاصة بأفراد الأسرة^(١).

٤- الألبسة والزينة :

عرف سكان منطقة الباحة العديد من الألبسة. فالرجال يلبسون ثوباً من قماش (الدوت)، قصير الأكمام، ويسمى (الثوب المزند) نسبة إلى زند الرجل، وهو منطقة الصدر والذراعين، ويلف الرجل على رأسه عمامة بيضاء وأحياناً مقلمة بخطوط سوداء، وتلف حول الرأس، والملابس الداخلية عند بعض المقتدرين سروال من قماش الدوت، وكثير من الرجال لا يجد ملابس داخلية يلبسها، وبخاصة في العقود الأولى من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ويحتزم الرجل بحزام من الجلد، وأحياناً يربط مع الحزام سكيناً صغيرة في غمدها^(٢).

(١) إجراء دراسة مقارنة لتاريخ الأطفمة والأشربة قديماً وفي عصرنا الحاضر موضوع هام وجدير بالبحث والدراسة . ونأمل من بعض أقسام التاريخ والحضارة في جامعاتنا السعودية أن تكلف بعض طلابها لدراسة مثل هذا العنوان في مناطق عديدة من المملكة .

(٢) دراسة تاريخ الألبسة والزينة في بلاد تهامة والسرارة خلال القرون الماضية المتأخرة موضوع جدير بالدراسة والتوثيق .

وللرجال ملابس خاصة في المناسبات مثل: الثوب، والعمامة، والخنجر، وحزام من الجلد يثبت عليه الخنجر، وغالباً يلبس في المناسبات حزام مرصوص بالرصاص، ويصطحب الوجيه أو الشيخ بندقيته، وأحياناً السيف والبشت^(١).

وفي فصل الشتاء يرتدي الرجال (العباءة) أو (الجبة) وهي مصنوعة من صوف الغنم، ومفتوحة من الأمام ولها أكمام طويلة، وغالباً، تكون ذات لون أبيض، وتصنع في وادي بيده من بلاد زهران، وبعض الأسر الغامدية تمتهن صنعها^(٢).

ويلبس النساء ثياب ذات ألوان سوداء أو حمراء، وأحياناً ألوان أخرى مختلفة، وهذا النوع من الثياب تلبسه المرأة في المنزل وخارجه. وهناك البسة أخرى مطرزة الأكمام، وهذا اللون من اللباس يستخدم في مناسبات الأفراح^(٣)، ومن البسة النساء الشيلة أو القناع الذي تلفه المرأة على رأسها وعنقها، ولونه في الغالب أسود، والنساء يلبسن أيضاً السراويل التي تصل إلى القدمين، وذات خطوط سوداء أو حمراء أو غيرها.

وعرف الرجال والنساء الأحذية حسب الإمكانيات فالأغنياء والأعيان يلبسون أحذية مصنوعة من الجلد، أو البلاستيك. والأحذية أنواع فمنها المستورد من أسواق الحجاز وغيرها، ومنها المصنوع محلياً من جلود الأبقار والجمال. وكثير من السكان صغاراً وكباراً يمشون حفاة لعدم وجود المال الذي يشترون به أحذية وما شابهها.

كان الرجال يحرصون على لبس الحزام، وهناك أحزمة من الجلد وسعف النخل وأحياناً من القماش، ويلبس الرجال في المناسبات أحزمة كبيرة ومحلاة بالفضة، وأحياناً يلبسون أحزمة وقد ثبت عليها الخناجر في أجزائها المزدانة بزخارف من الفضة. ويستخدمون الكحل في العيون، والحناء في اللحية والرأس، وبخاصة في منطقة تهامة، ويلبسون العقال ويضعون أغصان الريحان مع العقال أو العمامة. ويلبس بعض الرجال الخاتم في اليد، وبعض الأعيان والوجهاء يحملون المسبحة في اليد^(٤).

وكان النساء يتزين بالقلائد والخواتم في الصدر وأصابع اليد، وبعضهن يلبسن في مناسبات الزواج العصابة على الرأس، والحزام الذهبي، أو الفضي على الوسط، والزممام

(١) المصدر نفسه .

(٢) هذا النوع من اللباس يُصدر إلى خارج منطقة الباحة. وعرفت في نجران وبلاد عسير بالعباءة البيدية، نسبة إلى (وادي بيده) أو الغامدية نسبة إلى بلاد (غامد). هذا ما شاهده وسمعه الباحث من بعض كبار السن في منطقتي نجران وعسير خلال أعوام ماضية .

(٣) زار الباحث بعض متاحف منطقة الباحة وشاهد بعض الألبسة القديمة التي كان يلبسها الرجال والنساء وكذلك الأطفال .

(٤) ليس عموم الرجال يتزينون بما ذكرنا أعلاه، وغالبية السكان يكتفون باللباس العادي الذي سبق ذكره، لكن المجتمع لا يخلو ممن كان يتزين بما أشرنا إليه .

في الأنف وبعض الأخراس في الأذن، والمفارد المصنوعة من الخرز وأحياناً من الذهب أو الفضة في اليد^(١).

أما لباس الأطفال فهو من نوع الأقمشة التي يلبسها الآباء والأمهات . وكانت الألبسة قليلة، فالواحد منهم لا يملك إلا ثوباً واحداً وربما ثوبين بالكثير، أحدهما للعمل داخل البيت وخارجه، والآخر لصلاة الجمعة أو حضور المناسبات الاجتماعية في منطقتة .

ومنذ ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) بدأت أوضاع الغامديين والزهرانيين تتحسن تمويماً واقتصادياً، وتزايد المال في أيديهم، وتطوروا في ألبستهم، فأصبحوا يمتلكون أنواعاً عديدة من الألبسة والزينة، وأصبح كل فرد في المجتمع يقطن العديد من الألبسة الداخلية والخارجية . ولم يأت هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) إلا ومدن منطقة الباحة تحتضن العديد من الدكاكين والأسواق الخاصة باللباس والخياطة، وهكذا تطور الأمر حتى يومنا هذا والذهاب إلى أسواق المنطقة يجدها تعج بمئات الأسواق الخاصة بالألبسة والزينة (نساءً ورجالاً وأطفالاً) ومعظم أسواق اليوم تختص بالأطفال والنساء^(٢)، وهناك أماكن خياطة في كل مدينة وقرية تقوم بتفصيل جميع أنواع الموديلات الخاصة بالجنسين^(٣).

ومن خلال الإشارة إلى بعض ألبسة الماضي وما وصلت إليه في الوقت الحاضر، وما جرى من تبدلات على الناس في باب اللباس نذكر بعض الرؤى والانطباعات عن ما عرفنا وشاهدنا، وهي على النحو التالي :

- أ . ندرة اللباس قديماً جعل الناس يقتصدون في ملابسهم ويحافظون عليها .
بعكس الوقت الحاضر الذي بالغ فيه الفرد والمجتمع في استخدام الألبسة وأدوات الزينة المختلفة .
- ب . كان النساء قديماً يحرصن على لبس الملابس الساترة لأجسادهن في الداخل والخارج مع ترك وجوههن سافرة، واليوم أصبح النساء يتسترن بالحجاب والعباءة خارج المنزل لكن في الأفراح والمناسبات الاجتماعية كالزواج مثلاً تجدهن يبالغن في لبس ملابس كاشفة لأجسادهن، مع المبالغة في التزين . وهذا أمر لا يتفق مع الشرع والعرف حتى وإن كن أمام النساء فقط .
- ج . نلاحظ دخول موديلات حديثة عند الرجال والنساء وبخاصة الشباب، مثل: بعض أنواع البنطال، وملابس داخلية وخارجية أخرى . والمتأمل في هذه الألبسة

(١) كان الوضع عند النساء كما هو عند الرجال فليس كل النساء يقدرن على التزين بما سبق ذكره، أما عموم النساء فكن يكتفين بألبسة وأحزمة عادية، وإذا لبسن بعض الحلي فإنها ذات أنواع رخيصة.

(٢) في صفحات قادمة من هذا القسم، وفي عنصر التجارة سوف نذكر أسماء بعض الأسواق الكبيرة في مدن الباحة الرئيسية وجميع هذه الأسواق تعرض آلاف الأنواع والأشكال من الألبسة والزينة التي يحتاجها إنسان اليوم .

(٣) تاريخ اللباس والزينة والمقارنة بين الماضي والحاضر موضوع هام وجدير بالدراسة .

يجد فيها خدشاً للكرامة والمروءة وبخاصة إذا أعدنا ذلك إلى الشرع القويم، وإلى ما عرفه وعاشه الآباء والأجداد^(١).

د - ملابس الأوائل كانت تقوم في الغالب على مواد وأيدي عاملة محلية بعكس ألبسة اليوم المستوردة من خارج البلاد، والقائمون على عرضها وبيعها وتفصيلها وخياطتها من العمالة القادمين من خارج المملكة العربية السعودية^(٢).

هـ - وفرة الألبسة وأدوات الزينة اليوم لم تؤثر في رخص أسعارها. وإنما البعض منها ذات أسعار عالية مثل: الذهب، وبعض أدوات الزينة، والثياب والفساتين، والأحذية للرجال والنساء.

و - أدوات الزينة مثل: العصاية، وأحزمة الذهب والفضة للنساء، والأسلحة للرجال، وكثير من الألبسة القديمة عند الجنسين أصبحت جزءاً من التراث فلا يستخدمها أحد، اللهم إلا بعض الأسلحة التي يستخدمها بعض الرجال في المناسبات الاجتماعية، كذلك الحزام الذي كان لا يفارق الرجال والنساء والأطفال قديماً صار غير مرغوب عند جميع عناصر المجتمع^(٣).

٥. الفنون الشعبية والألعاب الرياضية :

عرفت منطقة الباحة العديد من الفنون الشعبية، وقد فصلها الاستاذ علي صالح السلوك في موسوعته: الموروثات الشعبية لغامد وزهران، وأفرد لكل فن سفر مستقل، الأول: قصائد الجبل والليبي. والثاني: قصائد العرضة في مناسباتها المختلفة. والثالث: قصائد اللعب والمسحباتي، والهرموج، والعزاوي والسامر. والرابع: الأناشيد الشعبية (القاف). والخامس: الأمثال والحكم^(٤). ومن خلال هذا الرصد التاريخي الأدبي نورد الآراء والأقوال التالية :

- أ - منطقة الباحة غنية بتراثها وأدبها الشعبي.
- ب - غنى الجانب اللغوي والحكم والأمثال في هذه البلاد الأزدية القحطانية.

(١) بعض هذه الألبسة تظهر مفاتن المرأة، وأخرى لا تليق بالرجل الشاب، لأنها تظهر أحياناً أطرافاً من عورته، أو أن فيها تشبهاً بالنساء أو بلباس اليهود والنصارى.

(٢) من أراد الاستزادة عن أنواع وأسماء وأشكال الملابس وأدوات الزينة القديمة في منطقة الباحة فليذهب لزيارة بعض المتاحف المحلية في مدن المنطقة، وسوف يجد الكثير من ألبسة القدماء. ومعظمها صناعة محلية، مع أن بعض موادها الرئيسية مثل: القماش وأدوات الزينة كانت مستوردة من أسواق الحجاز واليمن وغيرها.

(٣) دراسة تاريخ اللباس والزينة في منطقة الباحة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع جدير بالبحث والدراسة ويستحق إلى أن يكون موضوعاً لرسالة ماجستير أو دكتوراه.

(٤) هذه الكتب الخمسة التي ألفها ونشرها الأستاذ السلوك، طبعت في مطابع مؤسسة المدينة في جدة عام (١٤١٥هـ).

- ج - على جامعة الباحة مسؤولية كبرى تجاه موروث منطقة الباحة الشعبي والثقافي والأدبي واللغوي، ومن ثم يجب عليها إنشاء مراكز أبحاث متخصصة في دراسة التراث الشعبي للمنطقة، كما يجب عليها تشجيع أقسام اللغة العربية والتاريخ والاجتماع على دراسة أدب وتراث ولغة هذه البلاد^(١).
- د - الأدب الشعبي الذي تتميز به منطقة الباحة يستحق الصيانة والحفاظ عليه، فإمارة المنطقة مع الجامعة والنادي الأدبي، وجمعية الثقافة والفنون عليها جميعاً مسؤولية التعاون والتضامن لإنقاذ هذا الموروث من الضياع.
- هـ - السائر في منطقة الباحة اليوم يشاهد أجيالاً صاعدة لا تعرف عن موروث آبائها وأجدادها أي شيء، وهذه كارثة كبيرة وبخاصة إذا عرفوا فيما تصدر لهم وسائل التقنية والقنوات الفضائية من ثقافات وفنون سلبية وبعيدة عن تراث آبائهم، وما عرفته منطقة الباحة من أصالة وقيم ومبادئ.
- و - على إدارة التعليم مع القائمين على مهنة التربية والتعليم في المراحل الجامعية والعامية مسؤولية الحفاظ على الموروث الأدبي القديم، ثم نقله إلى أجيال اليوم التي تعيش مرحلة فاصلة كبيرة ما بين الماضي والحاضر.
- ز - المشاهد للفنون الشعبية التي تمارس في بعض المناسبات الاجتماعية والرسمية يجد خلالها كبيراً في أدائها وحفظ تراثها . فهناك أجيال جديدة لا تجيد ممارستها، ولا يوجد هناك شعراء أكفاء يقولون ويحفظون ويبدعون كما كان عمالقة الموروث الشعبي السابق^(٢).

عرف الغامديون والزهرانيون ألعاباً رياضية قديمة مثل : السباحة في الآبار والغدران، والمصارعة، والسباق وهناك ألعاب محلية أخرى عديدة، ولها أسماء شعبية عند الناس^(٣). مثل : الدلاوة، واللقطة، والأمثال، والبيوت، والقبة، (وماك) بالحجارة، ولعبة اللسح، وساري بالغترة، أو بأغصان شجر لا يؤلم عند الضرب، وألعاب على ضوء القمر، وألعاب يجتمع الشباب لها ليلاً فيوقدون النار ويؤدونها على ضوء القمر والنار، وألعاب القفز والسمر وغيرها^(٤).

- (١) منطقة الباحة جديرة بالعديد من الدراسات الأكاديمية وبخاصة في موروثها الثقافي واللغوي والشعبي .
- (٢) نأمل أن نرى دارسين ومتخصصين في أدب وثقافة الفنون الشعبية . كما نأمل أن نرى بعض الباحثين الجادين الذين يتولون دراسة تاريخ الأدب الشعبي القديم مع ذكر سلبياته وإيجابياته في السابق، وما ناله من التقهقر والضعف في عصرنا الحالي، ثم رصد بعض النتائج والتوصيات التي تؤدي إلى إنقاذ ما بقي منه.
- (٣) للمزيد عن هذه الألعاب، انظر: أحمد سالم عثمان . ألوان من تراث غامد وزهران (الرياض: الدار العربية للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ)، ص ٥٤، ٥٥.
- (٤) المصدر نفسه . ودراسة تاريخ الألعاب الرياضية القديمة في بلاد السراة وتهامة من مدن الحجاز الرئيسية إلى جازان ونجران خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع يستحق أن يفرد له كتاب علمي موثق، ولا زال في هذه المنطقة من كبار السن من يروي تفصيلات عن ألعاب ذلك الزمن الغابر .

وفي العقود الماضية المتأخرة عرفت المنطقة العديد من الألعاب الرياضية الحديثة مثل: كرة القدم، والطاولة، والسلة، واليد، وألعاب القوى المختلفة. والآن عرف أجيال اليوم العديد من الرياضات التقنية والإلكترونية عن طريق الجوال، والكمبيوتر، والبلاي ستيشن وغيرها، ومن خلال ما عرفنا وسمعنا عند الأوائل وما نشاهده اليوم نستطيع القول:

١. جهل وعدم معرفة جيل اليوم لألعاب ووسائل تسلية الآباء والأجداد. وهذا مما سوف يوسع الفجوة النفسية والثقافية والاجتماعية والفكرية بين الأوائل والمتأخرين.
٢. الألعاب الرياضية القديمة تبني عقول وأجسام الممارسين لها، كما أنهم يشعرون بالرضى النفسي، وتزيد من الألفة والترابط بينهم. بعكس كثير من ألعاب اليوم فهي تسبب التوتر والقلق في عقول وأجسام من يمارسها، كما أن بعضها مثل الألعاب التقنية تسبب البدانة وأمراض الضغط والسكر وغيرها من العلل لأن الممارسين لهذه الألعاب يقضون أوقاتاً طويلة وهم جالسون، بالإضافة إلى استهلاك كميات كبيرة من الطعام والمشروبات الغازية^(١).
٣. تنوع الألعاب الترفيهية في بعض المراكز السياحية مثل: الحدائق والمتنزهات، والتجمعات السكانية. وهذا النوع من الألعاب له جوانب إيجابية للترويح والاستجمام لمن يذهب إليها ويمارسها بطريقة سليمة ومقننة، أما الذي يذهب إلى مثل هذه الأماكن فيقضي بها أوقاتاً طويلة، أو يتعامل مع بعض آلات اللعب بقسوة وغير بصيرة فهذا مما قد يسبب له أذى جسدياً يؤدي بحياته^(٢).

٦. عادات وتقاليد وأعراف أخرى :

عرفت منطقة الباحة العديد من التقاليد والأعراف الاجتماعية مثل: عادات الزواج، والمآتم، والأعياد، والتعاون والتكافل، وحفظ الجوار، والأحلاف القبلية، وأعراف أخرى عديدة أثناء ممارسة بعض الأعمال الاقتصادية في التجارة، والزراعة، وصناعة بعض الحرف والصناعات التقليدية^(٣). كما مارس الغامديون بعض التقاليد والأعراف في زيارة

(١) هذا ما شاهده الباحث أثناء زيارة بعض الصالات والمقاهي الترفيهية في منطقة الباحة أثناء فترة جمع مادة هذا البحث (١١/٢٩-١٢/٩-١٤٢٣هـ).

(٢) هناك من فقد حياته في بعض المراكز أو الألعاب الترفيهية في منطقة الباحة، نتيجة لسوء اللعبة التي يمارسها، أو عدم صيانة بعض الألعاب قبل استخدامها. هذا ما سمعه الباحث من بعض القائمين على بعض المجمعات الترفيهية في مدينة الباحة في (٥/١٢/١٤٢٣هـ).

(٣) للمزيد من التفاصيل عن بعض التقاليد والعادات التي عرفها سكان منطقة الباحة انظر: سعيد فالح الغامدي. التراث الشعبي في القرية والمدينة (منطقة الباحة مدينة جدة). (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ١٤٦ وما بعدها، انظر أيضاً: أحمد سالم عثمان، ألوان من تراث غامد وزهران، ص ٢٣ وما بعدها.

مرضاهم، واختلاطهم ببعضهم في قراهم وأسواقهم وأسفارهم، واستقبالهم ضيوفهم وتوديعهم، وفي حروبهم وسلمهم^(١).

وإذا قارنا ما سمعنا وعرفنا من أعراف وعادات وتقاليد قديمة في منطقة الباحة، ثم شاهدنا ما تعيشه البلاد اجتماعياً في الوقت الحاضر، فإننا نستطيع الخروج بالعديد من الانطباعات التي نذكر أهمها في النقاط التالية.

أ. تنوع بيئة منطقة الباحة أثرت قديماً في تقاليد وأعراف الناس فأهل البوادي يمارسون مهنة الرعي، ومن ثم فهم يعيشون تقاليد وعادات أهل البادية. أما أهل تهامة والسراة فقد جمعوا بين حضارة الحضر والبادية فهم يمارسون رعي مواشيهم ويعملون في مهن الصناعات اليدوية والزراعة والتجارة^(٢).

ب. يغلب على الناس قديماً البساطة وعدم التكلف في بعض عاداتهم، مثل الأعياد، والزواج، وتجد التقارب والمحبة في ممارسة أعمالهم المختلفة. وكان جميع أفراد الأسرة أو القرية أو المجتمع الواحد يتعاونون في كل ما يعود عليهم بالنفع والفائدة، ولا تخلو المنطقة من صراعات بين العشائر المتجاورة، وكانت جل صراعاتهم تدور في فلك المراعي والمزارع وموارد المياه والشرف وغيرها^(٣).

ج. لازالت بعض عادات الزواج، والأعياد، والمآتم تمارس عند سكان منطقة الباحة إلى اليوم، إلا أنه جرى عليها أيضاً بعض التغيرات، فالأماكن الخاصة بالزواج، والهدايا، والمهور والفنون التي تمارس أثناء الزواجات أصبح مبالغاً فيها كما وكيفاً^(٤)، والتراحم والتقارب الذي كان مألوفاً في الأعياد صار محدوداً بل صار في حكم المفقود في أحيان أخرى^(٥). أما عادات المآتم فممارستها اليوم أفضل مما

(١) المرجعان نفسهما. ولازالت منطقة الباحة (بادية وسراة وتهامة) تحتاج إلى دراسات علمية أكاديمية تركز على عادات وأعراف الناس. وهناك ثروة ثقافية ولغوية في ممارسة كثير من التقاليد والأعراف، والباحث في هذا المحور يجد منطقة الباحة غنية في هذا الجانب الثقافي والتعليمي.

(٢) هذا ما سمعه الباحث أثناء تجواله في منطقة الباحة، بل عاصر صوراً من هذه الحياة في منطقة عسير خلال العقود الأربعة الماضية.

(٣) عاشت منطقة الباحة وعموم بلاد تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية الوسيطة والحديثة الماضية بعض أشكال من الصراعات والفوضى، وذلك بسبب فقدان الأمن، وعدم وجود سلطة مركزية تسوسهم، وعند مجيء الحكم السعودي الحديث وحد البلاد حتى صارت خاضعة لحكومة رئيسية تحكم فيهم شرع الله. هناك مئات الوثائق التاريخية غير المنشورة التي تؤكد ما ذهبنا إليه. ودراسة أحوال بلاد السراة وتهامة سياسياً وإدارياً خلال القرنين (١٢-١٤هـ/٢٠-٢٠م). موضوع جدير بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية.

(٤) المشاهد لحفلات الزواجات اليوم يجد المبالغة في شراء الملابس والمصروفات التي تنفق على الحفل، من إيجار صالات، وتقديم ولائم وهدايا وغيرها. مشاهدات الباحث لعادات الزواج قديمة وحديثاً في مناطق عديدة من جنوبي البلاد السعودية.

(٥) لازالت عادات الاحتفال بالأعياد تمارس، لكنها تحولت في الغالب من النهار إلى الليل، ولم يعد لها النكهة والطعم الذي عرفناه وعشناه في أواخر القرن الهجري الماضي. دراسة عادات وتقاليد الأعياد في الماضي والحاضر موضوع يستحق الدراسة والاهتمام.

كانت عليه في الماضي وبخاصة في الولايم والتكاليف التي كانت تقام في منزل الميت ويصرف عليها من ماله (١).

د. كان التعاون والتكافل والتراحم سائداً بين الناس قديماً، وحل التباعد والقطيعة بين الأقراب بشكل خاص وبين بعض أفراد القرية والمجتمع الواحد بشكل عام، وربما كان لعوامل التمدن والحضارة، والأسفار، ووفرة المال في أيدي الناس، والسعي في جمع الأموال، والتوسع في المآكل والمشرب والمسكن، وأحياناً ضعف الوازع الديني أثر في تباعد أفراد المجتمع، وفقدانهم صفات التراحم والتعاون التي كانت سائدة بين آبائهم وأجدادهم (٢).

هـ. مقارنة الكثير من الأعراف والتقاليد التي يمارسها شباب وشابات اليوم مع التقاليد وعادات شباب الماضي يجدها متباينة ومختلفة في التفكير، واللباس، والطعام، ونظرتهم للأجيال السابقة، وتعاملهم مع عصرهم. فالأوائل كانوا سائرين على خطى آبائهم في جميع أفرانهم وأترانهم وتعايشهم مع مجتمعهم المحدود جغرافياً وثقافياً وتعليمياً، أما جيل اليوم فقد خرجوا بتفكيرهم من إطار مجتمعهم، وأصبحوا يعيشون مع جميع أنحاء العالم من خلال وسائل التقنية الحديثة التي غزت عقولنا ومنازلنا ومجتمعاتنا، والمؤسف أن كثيراً من ناتج هذه الوسائل قاد أجيالنا المعاصرة إلى سلبيات كثيرة أثرت في قيم وأعراف وتقاليد المجتمع الأصيلة (٣).

و. ظهور المدن الكبيرة واتساعها، وشق الطرق وتعبيدها بين الأرياف والقرى والمدن، وترايب المنطقة (تهامة وسراة وبادية) جغرافياً، كل هذا أنتج تقارب الثقافات، وتبادل بعض العادات والأعراف والتقاليد وبخاصة في مجال: اللهجات، والأطعمة،

(١) كانت عادات وتقاليد المآتم قديماً قاسية على أهل الميت، وذلك باجتماع أهل القرية والعشيرة في منزل المتوفى لعدة أيام، وهم يأكلون ويشربون من مال الميت مدة إقامتهم للعزاء.

(٢) هذا ما سمعه الباحث من بعض أفراد في تهامة وسراة منطقة الباحة، بل عاصر حياة الناس في هذا الباب قديماً وحديثاً. وأجرى دراسة مقارنة عن تاريخ التكافل والتعاون في جنوبي البلاد السعودية خلال القرنين (١٤١٣هـ/٢٠١٩م) عنوان يستحق البحث والدراسة. وهناك آلاف الوثائق المحلية التي بين أيدي بعض الأسر السروية والتهامية، وجميعها تصب في خدمة هذا الموضوع.

(٣) يصعب علينا حصر هذه التأثيرات في هذه السطور المحدودة، لكن البعض من هذه التأثيرات يمس عادات الطعام والشراب، واللباس، وتعلم القيم والمبادئ السامية مثل: بر الوالدين، واحترام الكبير، والصدق، والأمانة، والمروءة، والشيم وغيرها. وإجراء دراسة تقارن بين أعراف وتقاليد وقيم الشباب اليوم وفي الماضي موضوع جدير بالبحث. نأمل أن نرى أحد الباحثين يتولاه بالدراسة العلمية الأكاديمية الجادة.

والأشربة، والألبسة والزينة، والاحتفالات والمناسبات الاجتماعية، وبعض الألعاب والفنون الشعبية وغيرها^(١).

ز. حصل الباحث أثناء جولته لجمع مادة هذا القسم على بعض الوثائق الاجتماعية المحلية التي تعود إلى العقود الوسطى من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وبعد قراءتها اتضح له عدة أمور نذكر أهمها في النقاط التالية :

١. جميع هذه الوثائق تتعلق بقرى وعشائر غامدية وزهرانية وعُمرية، وهي تناقش بعض أعراف المجتمع مثل : تحديد مهر الزواج، ومقدار الكسوة التي يقدمها العريس لعروسه قبل الدخول بها، ومقدار الوليمة التي تقدم في الزواج، وعدد الرجال الذاهبين مع العريس يوم زواجه . وجميع البنود الواردة في هذه الوثائق تصب في الحد من المبالغة في التكاليف وتسهل أمور الزواج بين أفراد القبيلة التي تخصها مثل هذه الوثائق.
٢. ورود بنود أخرى في بعض الوثائق وهي تقدر نسبة النكال أو التعزير (العقوبة) لمن يتجاوز في أرض جاره أو يعتدي على أحد من أفراد القبيلة، أو يقوم بأي تصرف يتعارض مع قوانين ونظم القبيلة .
٣. يتضح في عدد من الوثائق بعض النصوص التي تنظم نظام الأحلاف بين القبائل أو العشائر، وحماية الأسواق الأسبوعية، أو الطرق والأحمية التي بين القرى أو العشائر.
٤. هناك وثائق تدور في فلك التكافل والتعاون والتآزر الاجتماعي بين أفراد القرية أو العشيرة المسؤولة عن مثل هذا النوع من الوثائق . ووثائق أخرى حول السماية، وإغاثة الملهوف، واستقبال المسافرين وتوديعهم، وإكرام الضيوف، وتبادل الهدايا بين أفراد المجتمع الواحد وغيرها^(٢).
٥. يجب على جامعة الباحة، والنادي الأدبي، وجمعية الثقافة والفنون، وإمارة ومحافظات المنطقة أن تجمع مثل هذه الوثائق الأثقة الذكر، وتحفظ في متحف

(١) في الماضي كانت كل قرية منعزلة على نفسها، وغالباً بعض القرى المتقاربة التي تنتمي إلى عشيرة واحدة تجدها تعيش أعراف وتقاليد وقيم واحدة، وهكذا وضع العشائر والقبائل قديماً . وفي عصرنا الحاضر اتصل الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، وصارت المنطقة الواحدة مع اتساع أرضها وتعدد قراها وعشائرها وبطونها تعيش في مجتمع واحد يسوده الأمن وتبادل المصالح الإدارية والحضارية، ومن ثم انصهرت العادات واللهجات والأعراف، وأصبح الذي في أقصى تهامة الباحة يعيش كما يعيش الذي في أعالي السراة أو أقصى البادية . لقد عاصر الباحث الحراك الاجتماعي الذي عاشته مناطق الجنوب (الباحة، وعسير، والقنفذة، وجازان، ونجران) منذ أربعة عقود . ولذا فإجراء دراسة أكاديمية مقارنة على أحوال الناس الاجتماعية الحضارية في الماضي والحاضر موضوع جدير بالبحث والتوثيق، ونأمل أن نرى بعض طلابنا الأكاديميين فيقوموا بدراسة هذا الموضوع .

(٢) دراسة التاريخ الاجتماعي لبلاد الباحة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع جدير بالدراسة، ويستحق إلى أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية أكاديمية .

عام لخدمة المنطقة وتراثها. كما يجب على هذه المؤسسات أن تشجع دراسة هذه الوثائق واستخلاص ما فيها من دروس وعبر جميلة وطباعتها ونشرها للقراء، ويجب على وزارة التربية والتعليم أن ترصد في مقرراتها التي تدرس للطلاب والطالبات بعضاً من الجوانب الإيجابية التي وردت في مثل هذه الوثائق. وإذا تم إنجاز مثل هذه الجهود قولاً وعملاً فإننا دون شك سوف نسهم في ربط أجيالنا الحاضرة ببعض القيم والأعراف القديمة الصالحة في بناء الفرد والأسرة والمجتمع^(١).

رابعاً : الأوضاع الاقتصادية :

١. الجمع والالتقاط :

كانت حياة سكان منطقة الباحة بسيطة اقتصادياً، ومهنة الجمع والالتقاط من المهن التي مارسوها بشكل كبير، ففي الوقت الذي لم يكن فيه كهرباء كان الناس جميعاً يحرصون على جمع الحطب من الجبال والأودية حتى يستخدموه في طهي طعامهم، والتدفئة^(٢)، كما كانوا ينقلون المياه على ظهورهم أو على ظهور الدواب من الآبار أو مصادر المياه القريبة من أماكن استيطانهم^(٣). ويقومون أيضاً على جمع الأعشاب والحشائش التي يقدمونها لحيواناتهم الأليفة في منازلهم^(٤).

وأثناء حصد الثمار والحبوب في مناطق السراة وتهامة كان هناك بعض المتجولين من أهل المنطقة، وأحياناً من المناطق المجاورة الذين يتصلون بأصحاب الزروع وقت الحصاد ويطلبون منهم الصدقة - غالباً - يحصلون على مطلبهم، وهكذا يتنقلون بين أصحاب المزارع للفرض نفسه^(٥). وعندما يتجمع عندهم مقادير من الحبوب أو الثمار ينقلونها إلى أماكن إقامتهم^(٦).

(١) الذاهب في أرجاء بلاد تهامة والسراة، والفاحص لموروثها الأدبي والثقافي والاجتماعي فإنه سوف يجد مخزوناً قيماً وجيداً في بناء المجتمعات على مبادئ العزة والقوة والشهامة والإنسانية. ولا ننكر أنه كان عند الأوائل بعض السلبيات، لكن عندهم من الإيجابيات ما يستحق التأمل فيه والاستفادة منه في حاضرنا ومستقبلنا .

(٢) عند استخدام الكهرباء بدأت مهنة جمع الحطب تتلاشى، ولم يبق إلا أفراد قليلون يقومون بجمع الحطب من بعض الجبال والأودية وحمله في سياراتهم من أجل بيعه في الأسواق. وغالباً، يستخدم لطهي بعض الأطعمة والأشربة أثناء الخروج للترويح والنزهة في الجبال، ويستخدم أيضاً في حرق البخور أو العودة التي تقدم للضيوف وأحياناً في المساجد يوم الجمعة وخلال شهر رمضان .

(٣) هذا ما سمعه الباحث وعاصره في منطقة عسير خلال العقد الأخير من القرن (١٤٠٥هـ/٢٠٠٤م) .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) هذا ما سمعه الباحث من بعض كبار السن في سروات الباحة، وشاهده في بلاد بني شهر وبني عمرو من منطقة عسير خلال تسعينيات القرن (١٤٠٥هـ/٢٠٠٤م) .

(٦) كان أصحاب المزارع يطلبون أحياناً من أولئك المتجولين أن يعملوا معهم أثناء حصد المحاصيل والثمار، لعدة أيام وربما أسابيع أو شهور حتى الانتهاء من حصد ودرس ثمار مزارعهم . مشاهدات الباحث في نهاية القرن (١٤٠٥هـ/٢٠٠٤م) .

وهناك العديد من الأشجار والنباتات المثمرة في الأودية والجبال، مثل : التين الشوكي (البرشومي)، والعنب، والرمان، والتين، واللوز، وفواكه وثمار أخرى، وهي أملاك خاصة لبعض الأسر في المنطقة، وعند التقاطها يستعان ببعض أفراد القرية أو عابري السبيل، وعند الانتهاء من قطعها وجمعها تعطى تلك الأيدي العاملة نصيباً من محاصيل هذه الثمار^(١). ويوجد في الجبال والأودية العامة بعض الأشجار المثمرة، مثل: النبق من أشجار السدر، والهدب من أشجار العرعر، وربما التفاح البلدي والتين الجبلي، وأحياناً الصمغ^(٢)، وكل هذا يتم جمعه من قبل بعض أفراد القرية أو العشيرة القريبة من منابت هذا الشجر^(٣)، وكان يجتاح المنطقة أحياناً موجة الجراد الذي يهبط على الزروع وفي الأودية والجبال، ومن ثم تكون فرصة للسكان لصيد وجمعه وأكله^(٤).

وفي العقود المتأخرة تلاشت واختفت مهنة الجمع والالتقاط، وذلك لعدة أسباب نذكر أهمها :

أ. عدم الحاجة إلى هذه المهنة لوفرة المال والخير في أيدي الناس، وكانت الحاجة هي التي تدفع الأوائل إلى ممارسة هذه الحرف بشكل كبير وبخاصة في جمع الماء والحطب من مصادرها الرئيسية .

ب. انتشار التعليم، وامتداد التنمية والتمدن جعل تراث وتاريخ هذه المهنة غير معروفة، والزائر لبعض المتاحف المحلية في منطقة الباحة، أو الحديث مع أهل المنطقة لا يجد ذكراً ولا أثراً كبيراً لها، ويجب على مؤسسات التعليم والثقافة في المملكة وفي المنطقة أن تُطلع الأجيال الحاضرة على كيفية ممارسة هذه المهن، وفوائدها، وأسباب انقراضها، والعبر والدروس المستفادة منها^(٥).

٢- الصيد :

إن الطبيعة الجغرافية لمنطقة الباحة تؤكد الغنى الكبير في ثرواتها الحيوانية، فهناك العديد من أنواع السباع، والحيوانات والطيور. وهناك صيادون يمارسون مهنة الصيد في جميع أرجاء المنطقة، وكانوا على النحو التالي:

- (١) مشاهدات الباحث في أواخر القرن (١٤هـ/٢٠م)، وسماع مثل هذه الروايات من بعض أفراد غامد وزهران أثناء رحلتنا .
- (٢) يوجد الصمغ بكمية جيدة في أشجار سروات وأصدار منطقة الباحة .
- (٣) مشاهدات الباحث في تسعينات القرن (١٤هـ/٢٠م) .
- (٤) كانت موجات الجراد تجتاح منطقة تهامة والسراة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م)، ويحصل بسببه الأذى الكبير على محاصيل ومنتجات أهل البلاد .
- (٥) مثل هذه المهن وغيرها من المهن التي انقرضت تستحق الذكر والتدوين بل إن نقل موروث الأجيال القديمة إلى الأجيال الحديثة أمانة في أعناقنا، ويجب أن تؤدي هذه الأمانة بأساليب قولية وعملية فعالة .

١. صيادو الطيور مثل: الحمام، والحجل، والعصافير وغيرها من أجل اقتنائها. وصيادو الطيور مثل: الغربان، والحدأة، وأحياناً النسور للتخلص منها لما يصدر منها من أذى على المزارع وبعض الطيور والحيوانات الأليفة^(١).
٢. صيادو السباع والحيوانات البرية مثل: الأسود، والنمور، والضباع، والذئب، والنيص، والثعالب وجميعها مفترسة لبعض الحيوانات والطيور الأليفة، ومن ثم لا يتورع الإنسان عن صيدها والقضاء عليها، وهناك صيادون للغزلان، والوبران وغيرها بهدف أكلها^(٢).
٣. كان هناك بعض الصيادين للزواحف: مثل العقارب، والثعابين، والحيات وغيرها. وهذه الزواحف كانت تتواجد بكثرة في جميع أرجاء المنطقة، ويصدر منها بعض الأذى على السكان، لهذا لا يتورعون عن القضاء عليها عند وجودها^(٣).

وللصيادين العديد من الأساليب والحيل، أثناء ممارسة الصيد، ومن تلك الحيل ما يلي:

١. استخدام الأسلحة النارية مثل: بنادق الرصاص والبارود، وبهذه الوسيلة تصطاد السباع والحيوانات والطيور والزواحف^(٤).
٢. تستخدم بعض الطرق البدائية مثل: حفر الحفر في طريق بعض السباع، مع تغطيتها ببعض القش حتى لا ينتبه لها الحيوان الذي يُراد اصطياده^(٥).
٣. هناك العديد من الأدوات مثل: الحبال، والمسامير وأحياناً البلاستيك، والأغطية مثل: الحنابل والسجاد وفرش السعف التي تستخدم في بعض الخدع لاصطياد بعض الطيور في أوكارها، أو بعض الحيوانات والسباع في مغاراتها^(٦).

(١) هذا ما سمعه الباحث من بعض كبار السن في منطقة الباحة في (١٠/٥/١٢/١٤٢٣هـ).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تاريخ الصيد في بلاد تهامة والسراة خلال القرون الماضية المتأخرة موضوع يستحق أن يجري عنه العديد من الدراسات العلمية الأكاديمية.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الصيد مهنة قديمة عرفها العربي، وهناك العديد من الدراسات الأكاديمية الجيدة التي درست تاريخ الصيد عند العرب قبل الإسلام وبعده، وذكر بهذه البحوث العديد من الأساليب والطرق التي لجأ لها الصياد أثناء ممارسة الصيد، ومنطقة تهامة والسراة الممتدة من الحجاز إلى اليمن كانت بيئة مناسبة للصيد. وهذه البلاد جديرة بدراسة تاريخ الصيد فيها خلال القرون الإسلامية الوسيطة والحديثة والمعاصرة، ومن يتخذ هذا الموضوع عنواناً لأطروحة الدكتوراه، أو كتاب أكاديمي فإنه سوف يخرج لنا بفوائد علمية جيد.

وقد سألنا بعض الغامديين والزهرانيين عن ممارسة الصيد في عصرنا الحاضر، فذكروا لنا ندرة ممارسته، وذلك للأسباب التالية :

١. عدم الحاجة إلى صيد الحيوانات والطيور الصالحة للأكل، وذلك لوفرة الأطعمة والأشربة المتنوعة، ومن ثم فلا حاجة إلى مثل هذه المهنة. ولا زال هناك قلة من الصيادين يمارسون الصيد في جبال المنطقة وأوديتها من أجل النزهة والاستمتاع فقط.
٢. بعد شق الطرق، وقيام المدن، وازدياد السيارات والكهرباء والآلات الأخرى هاجرت السباع المتوحشة أو انقرضت، والوضع نفسه امتد إلى الطيور والزواحف الضارة، ومن ثم فلا حاجة للصيد أن يمارس هذه المهنة^(١).

٣- الزراعة :

تنتشر الأراضي الزراعية في أنحاء منطقة الباحة، فكل أسرة لها مزارع خاصة بها يتوارثونها فيما بينهم، والمتجول في المنطقة يلحظ البلاد الزراعية محفوظة بالمدرجات الزراعية في الأجزاء السروية، وأحياناً بالعقوم الترابية أو المدرجات في النواحي التهامية^(٢)، وقد اطلعنا على بعض الوثائق التاريخية في بلاد زهران وغامد، واستخلصنا منها الجوانب التالية :

١. جميع تلك الوثائق يعود تاريخها إلى القرنين (١٢-١٤هـ/٢٠١٩م)، ومكتوبة بخط اليد، وعليها أسماء من تخصصهم وشهود بعض الحاضرين على تدوينها^(٣).
٢. وجدنا كل قطعة زراعية لها اسم، وحدود، وأحياناً يشترك فيها أكثر من وارث، ومنها ما هو مسقوي تسقى من الآبار أو العيون، ومنها الذي يروى بمياه الأمطار^(٤).
٣. هناك أراض موقوفة من أصحابها وأسرههم على أهل بيوتهم وذريتهم، فلا تُباع أو تُهدى، وإنما تبقى وفقاً يأكل منها الداخلون والباقون ضمن إطار مالكتها وذريته، ولا تذهب إلى غيرهم^(٥).

(١) تستخدم أحياناً الأسلحة النارية في قتل هذه الحيوانات أو الطيور وبخاصة إذا ظهرت قريباً من مواطن الاستيطان في المنطقة. مشاهدات الباحث، وما سمعه من بعض سكان المنطقة في (٦/١٢/١٤٣٣هـ).

(٢) تاريخ المدرجات الزراعية في بلاد تهامة والسراة جدير بالبحث والدراسة.

(٣) تقدر الوثائق التي اطلعنا عليها بالمئات، ويوجد منها صور في مكتبة الباحث (مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية).

(٤) جميع الأراضي في منطقة الباحة تسقى من الآبار أو الأمطار ويطلق على النوع الأول (مسقوي)، والثاني (عشري) .

(٥) نلاحظ بعض مزارع الوقف التي هلك ورثتها تنتقل إلى ملكية الدولة، وأصبح هناك مؤسسة إدارية حكومية تشرف على هذه العقارات، وهي (وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف) .

كان جميع سكان السراة وتهامة يمارسون الزراعة^(١)، فهي المهنة الرئيسية التي يقتاتون منها، ولديهم وسائل وطرق عديدة لخدمة أراضيهم، وزراعتها وريها وحصدها. وهناك الكثير من الأدوات المستخدمة في ممارسة هذه المهنة^(٢).

والمحاصيل الزراعية في الباحة: البر (القمح)، والذرة، والشعير، والدجر، والبلسن، وجميع هذه الحبوب تزرع في السراة. أما تهامة فالذرة والدخن من أكثر محاصيلها. ومن الفواكه التي اشتهرت بها المنطقة الرمان والعنب واللوز، وهناك فواكه أخرى تزرع في الأجزاء التهامية والسروية مثل: التين والتفاح، والخوخ، والموز، والمشمش، والبرشومي. ويُزرع فيها بعض الخضروات كالكوسة، والطماطم، والبطاطس، والخس، والجرجير، والبصل وغيرها^(٣).

وسكان المنطقة متعاونون في ممارسة أعمالهم الزراعية من تسوية الأرض واستصلاحها إلى زراعتها وسقيها وحصادها. وهناك موروث اقتصادي واجتماعي وثقافي ولغوي واسع عند أصحاب الأرض، وما يقومون به من أعمال ووسائل أثناء القيام على مزارعهم وخدمتها^(٤).

وإذا قارنا الزراعة قديماً بما نشاهده عن زراعة اليوم، فإننا نجد الفرق شاسعاً، وسوف نذكر في السطور التالية أهم تلك المفارقات وهي على النحو التالي :

١. أدوات الزراعة قديماً يدوية وتقليدية، واليوم تستخدم الآلات والكهرباء في ممارسة هذه المهنة، مع أن الزراعة في السابق كانت هي العمود الفقري الذي يقوم عليه اقتصاد البلاد فيكفي الناتج الزراعي لسد حاجة السكان المحليين، ويصدر الكثير من محاصيل منطقة الباحة وما جاورها إلى أسواق الحجاز ونجد وغيرها^(٥).

(١) أهل البوادي لا يمتنون الزراعة وإنما الرعي والجمع والالتقاط مهتهم الرئيسية .

(٢) الزائر لبعض المناض المحلية في الباحة وبلجرشي يشاهد الكثير من تلك الأدوات المصنوعة من الخشب أو الحديد وأحياناً من الجلود، كما أن سكان المنطقة يمتلكون آلاف الوثائق التي تصور تاريخ الزراعة في منطقة الباحة . ودراسة موضوع الزراعة خلال القرنين (١٤١٣هـ/٢٠١٩م) موضوع يستحق إلى أن يكون موضوعاً لرسالة ماجستير، أو دكتوراه.

(٣) هذا ما سمعه الباحث من بعض المسنين في منطقة الباحة . وهذه المزروعات نفسها عرفتها منطقة عسير . للمزيد انظر: ابن جريس، عسير (١٤٠٠-١١٠٠هـ) (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ١٤٢ وما بعدها، ويوجد في أودية وجبال منطقة الباحة الكثير من الأشجار والشجيرات والحشائش التي تعيش على مياه الأمطار، وليس للإنسان تدخل في زراعتها واستصلاحها، ومن تلك النباتات: العرعر، العتم، الشث، الأثب، التائب، النشم، العرفج، الطباق، السدر، السمر، الطلح، وشجيرات وحشائش متعددة الأشكال والأغراض .

(٤) هناك تفصيلات حضارية وثقافية عن مواسم الزراعة في منطقة الباحة، وعن طريق الحراثة والزراعة والري، وأساليب أخرى عديدة في النشاط والتبادل الزراعي، والأدوات الزراعية المستخدمة في هذه المهنة منذ استصلاح الأرض حتى جني المحاصيل ودرسها وتخزينها . وتاريخ الزراعة في بلاد تهامة والسراة خلال القرون الماضية المتأخرة جدير بالبحث والدراسة الأكاديمية .

(٥) كانت منطقة الباحة وعموم بلاد السراة تصدر حبوبها بكميات كبيرة إلى أسواق الحجاز . وهناك الكثير من المصادر التاريخية المبكرة والوثائق الحديثة أشارت إلى التجارات المتبادلة بين الطائف ومكة وبين أرض السراة . وتاريخ الصلات الاقتصادية بين هاتين الناحيتين في العصر الإسلامي المبكر والحديث موضوع جدير بالبحث والدراسة العلمية .

٢. قام السكان الأصليون قديماً (نساءً ورجالاً) على خدمة أراضيهم واستصلاحها، بل كانت مهنتهم الرئيسية في الحصول على أقواتهم، واليوم تدهورت الزراعة في منطقة الباحة، فترك الأراضى الزراعية، وحول بعضها إلى مدن وقرى وأحياء سكنية^(١). وإن بقي نسبة قليلة جداً من السكان تمارس الزراعة في بعض الأودية أو النواحي فإنهم يجلبون لها مزارعين من خارج المملكة^(٢).
٣. لم يجد المزارعون قديماً أي مساعدة أو دعم حكومي، وذلك لضعف الظروف الاقتصادية، ومع ذلك فالزراعة كانت نشطة وعامرة في كل مكان. ومنذ أربعة عقود مضت لم تأل الدولة جهداً في تقديم القروض للمزارعين، وتزويدهم بالآلات اللازمة مثل: الحراثات، ومواتير رفع المياه من الآبار، والحصادات وغيرها، ومع هذا كله نجد الزراعة تدهورت بل انعدمت في معظم أنحاء المنطقة^(٣).
٤. الفجوة الكبيرة التي يعيشها جيل اليوم، وعدم معرفته للتاريخ والتراث الزراعي الذي عاشه الآباء والجدد يعد سلبية ثقافية وحضارية تفصل بين أجيال اليوم والأجيال السابقة، ومن ثم فإن على وزارة الزراعة والمؤسسات التعليمية العامة والعالية، والإمارات والمحافظات عليها مسؤولية كبيرة في معالجة هذه الهوة وذلك باستصلاح الأراضى الزراعية، وربط جيل اليوم بهذه المهنة الهامة والرئيسية في بناء حياة المجتمعات اقتصادياً وحضارياً^(٤).

٤- الحرف والصناعات :

مارس سكان منطقة الباحة العديد من الصناعات والحرف اليدوية مثل: دباغة الجلود وخرزاتها، والنجارة وصناعة الخشب، والتعدين والحدادة والصياغة، وصناعة الفخار والأحجار، وصناعة الملح، وصناعة الخصف والنسيج، والصباغة والخياطة، كما

(١) يلحظ المتجول في عموم منطقة الباحة (بادية وسراة وتهامة) كثيراً من الأراضى الزراعية تحولت إلى أراضى سكنية . ويلاحظ أيضاً أن الأراضى الزراعية التي لازالت على وضعها الطبيعي أصابها الخراب والدمار، وذلك لانصراف عموم السكان إلى الوظائف الحكومية وممارسة أعمال صناعية وتجارية أخرى . مشاهدات الباحث في الفترة الممتدة من (٢٩/١١-١٢/١٤٣٣هـ) .

(٢) معظم المزارعين المجلوبين من مصر والسودان واليمن . وهذه ظاهرة سائدة في عموم المنطقة الجنوبية . مشاهدات الباحث خلال السنوات الماضية المتأخرة .

(٣) تاريخ الزراعة في العصر الحديث وما قدمت الدولة من إعانات عينية ومادية موضوع جدير بالدراسة، نأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين فيخرج لنا دراسة أكاديمية في هذا الجانب .

(٤) العمل على إنجاز دراسة مقارنة بين وضع الزراعة في القديم والحديث موضوع يستحق إلى أن يجرى عليه بعض الدراسة الأكاديمية . كما أن إجراء دراسات ومقارنات تحليلية بين أوضاع الزراعة في الباحة وعسير ونجران وجازان تستحق الاهتمام من الجامعات المحلية في هذا الجنوب السعودي . وكذلك فتح كليات للزراعة في هذه الجامعات الجنوبية جدير بالاهتمام .

مارسوا حرف الحلاقة، والحجامة، وجمع الثمار والحبوب والحطب، ونقل الأمتعة على ظهور الدواب وغيرها^(١).

والغالب على ممارسة الصناعات القديمة في بلاد غامد وزهران أمور عديدة نذكر أهمها في النقاط التالية :

١. جميع الصناعات والحرف السابقة الذكر وغيرها من ضروريات الحياة عند جميع طبقات المجتمع، وذلك لاحتياجهم إلى جميع المصنوعات التي تساعدهم على العيش وممارسة نظام حياتهم الاجتماعي والاقتصادي^(٢).
٢. العاملون في الحرف والصناعات قديماً من سكان المنطقة، وبعض المهن يشترك فيها الأب والأم وأفراد الأسرة، وهناك صناعات يقوم بها أناس متخصصون في ممارستها مثل: النجارة، والحدادة، والخياطة، والصناعة، والبناء وغيرها^(٣).
٣. جميع المواد الأولية لممارسة معظم الحرف والصناعات في منطقة الباحة محلية، وغالباً يتم جلبها من أنحاء المنطقة، كما أن مناخ البلاد يساعد أيضاً في ممارسة بعض الحرف والصناعات فمثلاً: الدباغة والخرازة نجد موادها الرئيسية مجلوبة من البيئة المحلية، ثم إن الطقس في الأجزاء السروية وأحياناً البدوية أفضل في معالجة الأديم وصناعته من المناطق التهامية^(٤).
٤. بعض الصناعات تحتاج إلى استيراد بعض المواد الرئيسية لممارستها مثل: النسيج والخياطة، فالأقمشة تستورد من أسواق الحجاز والقنفذة واليمن^(٥). وكذلك بعض الصناعات المعدنية وغيرها^(٦).

(١) تاريخ الحرف والصناعات في منطقة الباحة خلال القرنين (١٤٠٣هـ/٢٠١٩م) جدير بالبحث والدراسة . حبذا أن يتخذ موضوعاً لرسالة ماجستير أو دكتوراه في أحد أقسام التاريخ بالجامعات السعودية.

(٢) فالصناعات الخشبية مثلاً ضرورية في أدوات الطعام والشراب، وفي الأعمال الزراعية والتجارية وغيرها. وقس على ذلك جميع الأدوات الصناعية والحرفية الأخرى الهامة والضرورية في استقامة حياة الناس ومعيشتهم .

(٣) عندما كنت متجولاً في منطقة الباحة ذكر لنا العديد من أسماء الأسر والأفراد الذين كانوا مشهورين في عمل بعض الحرف والصناعات بل التقيت بأبناء وأحفاد بعض تلك الأسر وأطلعوني على بعض الوثائق التي تدور في فلك ممارسة أجدادهم أو آبائهم لبعض الصناعات اليدوية التقليدية .

(٤) صناعة الأديم، والحديد، والنجارة من أهم الحرف التي مارسها سكان غامد وزهران . وهذه الصناعات الثلاثة تستحق أن يفرد لها دراسة مفصلة توضح أهميتها في حياة الناس . وهناك صناعات أخرى عديدة تستحق أيضاً البحث والدراسة .

(٥) حصل الباحث على عشرات الوثائق التي تصور شراء بعض المواد الأولية لعدد من الصناعات . وكانت أسواق الحجاز والقنفذة هي المورد الرئيس لكثير من تلك السلع، مثل: الأقمشة، وأدوات الخياطة، وأحياناً بعض أدوات الصباغة والصياغة، وبعض الأواني المنزلية وغيرها .

(٦) المصدر نفسه .

٥. تتفاوت نوعية الحرف والصناعات من مكان لآخر، فالبوادي مثلاً لا يحتاجون كثيراً من المصنوعات لأنهم بدور رحل، وأهم حاجياتهم نسج وصناعة بيوتهم من شعر حيواناتهم، وربما حصلوا على بعض الأدوات الصناعية من الأسواق الأسبوعية فهم يقايضونها مع بعض سلعهم أو يشترونها بالنقود، أما سكان السراة وتهامة فهم مستقرون في أوطانهم ويمارسون الزراعة، والتجارة، وأعمال حضارية أخرى، ومن ثم فهم بحاجة إلى كثير من الأدوات الصناعية والحرفية . التي يستخدمونها في حياتهم اليومية^(١).

٦. الممارسون لبعض الحرف والصناعات يواجهون العديد من العقبات، مثل: نقص المواد الأولية لممارسة صنعتهم، وعدم توفر المال أحياناً يكون عائقاً في تطوير الصناعة وزيادة الإنتاج، كما أن الأدوات المصنوعة قد لا تباع بالنقود لعدم وجود المال، ومن ثم يلجأ الصناع إلى بيع سلعهم بالأجل أو مقايضتها مع سلع أخرى مثل: الحبوب والمواشي ومشتقاتها^(٢).

٧. بعض الدارسين أو الكتاب الغامديين والزهرانيين أشاروا في بعض دراساتهم إلى صور أو شذرات من الصناعات والحرف التي عرفت في مجتمعاتهم في العصور الماضية^(٣)، وحتى هذه اللحظة لم نطلع على دراسة وافية أكاديمية تناقش هذا الموضوع، ونأمل أن نرى من أساتذة جامعة الباحة أو بعض المؤرخين أو الأكاديميين من زهران وغامد من يتناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الجادة والرصينة^(٤).

وعند تجوالنا في المنطقة لاحظنا تلاشي معظم الصناعات والحرف اليدوية القديمة، وإذا كان هناك من يمارسها فهم قليلون . وقد شاهدت بعض أدوات الصناعات التراثية القديمة في أسواق المنطقة، وعند سؤالي عن أماكن صنعها قال لنا بعض الباعة أنها تمارس على نطاق ضيق جداً . وربما قام على ممارستها بعض العمالة الوافدة والمؤجرة من قبل بعض التجار المحليين^(٥).

(١) الزائر لبعض المتاحف المحلية في منطقة الباحة يلحظ أدوات صناعية كثيرة، ومعظمها صناعة محلية . ودراسة الصناعات والحرف القديمة في منطقة الباحة موضوع يستحق البحث والدراسة العلمية الأكاديمية.

(٢) هناك صناعات مثل: الحدادة، والصابغة وربما حرف أخرى تحترق اجتماعياً فالصناع الذين يمارسونها لا يزوجون أو يتزوجون إلا من فئاتهم . وعموم طبقات المجتمع ينظرون إليهم بهذه النظرة مع أنها صناعات هامة في حياة المجتمع . وهذه العادة عرفها وتوارثها العرب منذ العصر الجاهلي ولا زالت سارية عند كثير من القبائل العربية وبخاصة قبائل الجزيرة العربية حتى يومنا الحاضر.

(٣) هناك عشرات الدراسات الحديثة التي خرجت في العقود الأربعة الماضية عن تاريخ وحضارة منطقة الباحة . وبعض من هذه الدراسات أشارت بشكل موجز إلى حرف وصناعات مارسها الغامديون والزهرانيون في القرون الماضية .

(٤) نأمل أن نرى مثل هذا الموضوع مدروس في رسالة دكتوراه بقسم التاريخ في جامعة الباحة أو أي قسم من أقسام التاريخ في الجامعات السعودية .

(٥) شاهدنا في الأسواق الأسبوعية في منطقة الباحة بعض الهنود والباكستانيين واليمنيين والبنجاليين وغيرهم الذين كانوا يمارسون أعمال الحدادة، والصابغة، والخياطة، والدباغة وغيرها . مشاهدات الباحث في (٢-٦/١٢/١٤٣٣هـ).

وهناك بعض الأسباب أو المعوقات أو الاختلافات المصاحبة للصناعات والحرف القديمة والحديثة، ومن أهمها ما يلي :

١. انصراف سكان المنطقة إلى مهن التعليم والوظائف الحكومية الأخرى، ثم استقدام الأيدي العاملة الخارجية، وبالتالي ممارستهم جميع الصناعات والحرف التي كن يمارسها أهل البلاد في القرون الماضية^(١).
٢. النمو والتطور الذي ساد البلاد، جعل الصناعات اليدوية القديمة تتلاشى، وحل محلها الآلات والمعدات والأدوات والأجهزة التقنية، ومن ثم تطورت نوعية الصناعة، وزاد إنتاجها، وارتفعت سرعة الإنجاز، ودقة وجودة الصنع^(٢).
٣. الفرق بين الأيدي العاملة القديمة والحديثة، إن جميع العاملين اليوم في الحرف والصناعات من خارج المملكة العربية السعودية، أما الأيدي العاملة القديمة فكانوا من سكان المنطقة، ونادراً تجد يد عاملة وفدت من منطقة أو إقليم آخر، كما أن المواد الأولية لأي صنعة أو حرفة مستوردة من الأسواق الكبرى في المملكة، وغالباً المصدر الرئيس لكثير من هذه المواد مستورد من خارج المملكة^(٣).
٤. صناعات اليوم أجود وأجمل في الشكل، لكنها ربما تكون أخطر صحياً من الصناعات القديمة، والسبب أن المواد الصناعية السابقة يتم الحصول عليها من الطبيعة، في حين أن صناعات اليوم أصبحت ممزوجة بمواد كيميائية وبتروولية سامة وخطيرة^(٤).
٥. كانت الصناعات والحرف القديمة تمارس لسد حاجة أفراد الأسرة أو القرية في نطاقها الضيق، وإذا صدرت بعض المصنوعات إلى الأسواق المحلية فهي تجارات قليلة ومحدودة جداً، أما صناعات وحرف اليوم فهي أكثر انتشاراً وأكثر في العدد والحجم والنوع، وذلك عائد إلى كثافة السكان الكبيرة، وتوفر المال في أيدي الناس، وزيادة النمو والتطور الحضاري الذي تعيشه البلاد^(٥).

(١) تجولت في أسواق ومدن وحواضر منطقة الباحة وشاهدت عشرات الجنسيات من العمالة الوافدة، وكثير منهم كانوا يعملون في عشرات الصناعات والحرف اليدوية التجارية في الأسواق والمدن الصناعية، ولا تخلو قرية أو حي أو ناحية من نواحي المنطقة إلا يوجد بها العديد من العاملين المهرة والصناع والأيدي العاملة المختلفة. مشاهدات الباحث (١-١٢/٩٣٣هـ).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) إجراء دراسة مقارنة عن الأيدي العاملة والمواد الأولية للصناعات قديماً وحديثاً موضوع يستحق الدراسة. نأمل أن نرى بعض الباحثين في جامعة الباحة فيدرسون هذا المحور دراسة علمية جادة.

(٤) نأمل أن تقوم كلية الطب، وأقسام الكيمياء وعلوم الحياة في جامعة الباحة بإجراء بعض الدراسات العلمية الأكاديمية على بعض الصناعات القديمة والحديثة في منطقة الباحة، وإبراز المنافع والأضرار لكل صنعة.

(٥) دراسة الصناعات التقليدية في منطقة الباحة ومقارنتها مع النمو والتطور الحرفي والصناعي الذي تعيشه المنطقة اليوم موضوع يستحق البحث والدراسة، نأمل أن نرى أحد الباحثين الجادين من بلاد الباحة فيتولاه بالبحث والتقصي والدراسة.

٦. عادات وثقافات ومشاكل الصناعات والحرفيين قديماً وحديثاً تتنوع في بيئاتها، والظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التي عاصرتها، وقد سمعت العديد من الروايات في هذا الجانب أثناء تجوالي في منطقة الباحة خلال الأيام الأولى من شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) ^(١).

٥- التجارة :

أ- مدخل :

هناك العديد من المقومات التجارية والاقتصادية في منطقة الباحة مثل :

١. المنطقة بين مناطق جازان ونجران وعسير، من الجنوب والجنوب الشرقي، ومنطقة مكة المكرمة من الشمال والغرب، وأجزاء من المنطقة الوسطى من الناحية الشرقية، وهذا الموقع جعلها على صلات تجارية واقتصادية بهذه المناطق الجغرافية والإدارية .
٢. كانت منطقة الباحة غنية، بخيراتها وثرواتها الزراعية والحيوانية، والناظر في بعض كتب التراث، والوثائق الحديثة والمعاصرة، وأقوال بعض الرواة يجد أن هذه البلاد الزهرانية والغامدية مليئة بجميع أنواع المحاصيل الزراعية، ناهيك عن الثروة الحيوانية التي كانت تصدر إلى أسواق الحجاز وبعض الأسواق الأسبوعية داخل منطقة الباحة وخارجها ^(٢).

ب- الطرق والأسواق :

كانت الطرق في الماضي وعرة وغير معبدة، ولا تخلو أي قرية أو ناحية في منطقة الباحة من طرق ضيقة تصل بعضها ببعض، وتعد الجمال والحميز وسائل النقل الرئيسية عند عامة الناس، ومنذ النصف الثاني في القرن (١٤هـ/٢٠م) اتصلت مناطق الحجاز وعسير وجازان ونجران عبر منطقة الباحة بطريق رئيس معبد تسلكه السيارات، وكان حتى أوائل هذا القرن طريق ضيق وخطير في معظم أجزائه ^(٣)، كما أن نواحي منطقة

(١) لقد سمعت روايات حول مشاكل وثقافات الصناعات قديماً وحديثاً . بل عثرت على العديد من الوثائق التي تعكس بعض الأعراف أو التقاليد المصاحبة لبعض الحرف والصناعات الحديثة . وموضوع الثقافات والأعراف والتقاليد عند الحرفيين والصناعات قديماً وحديثاً موضوع جديد وجدير أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية .

(٢) دراسة التاريخ التجاري لمنطقة الباحة خلال القرون الإسلامية الوسيطة والحديثة . موضوع جدير بالاهتمام والدراسة، ويستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية أكاديمية .

(٣) منذ حوالي عشر سنوات بدأت التوسعات في هذا الطريق وفي هذا العام الهجري وربما العام القادم (٢٤-١٤٣٥هـ/٢٠١٣-٢٠١٤م) سوف يسير في اتجاهين، وقد تم التغلب على كثير من تعرجاته ووعورته . مشاهدات الباحث خلال هذا العام (٢٣-١٤٣٤هـ/٢٠١٣-٢٠١٢م) .

الباحة البدوية والتهامية كانت متصلة مع الأجزاء السروية بطرق وعقبات ضيقة ووعرة في مسالكها وحزونها^(١).

وعند زيارة المنطقة في نهاية عام (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م)، والتجوال في معظم أجزائها اتضحت لنا مظاهر عديدة في باب الطرق ووسائل النقل نذكر أهمها في النقاط التالية :

١. جميع المدن والقرى والبوادي والأرياف متصلة بعشرات الطرق المسفلتة والمتفاوتة في الطول والعرض، وإذا نظرنا إلى مدن الباحة والمندق وبلجرشي والمخوة، نجد أنها تتميز على غيرها في جودة وسعة طرقها، وربما مدينة الباحة بأحيائها ومخططاتها تعد الأفضل بين المدن الأنفة الذكر، ولازالت تحتاج إلى المزيد من الطرق الفسيحة والخدمات الهامة والضرورية لأنها الحاضرة الرئيسية للمنطقة^(٢).
٢. الطريق الرئيس المزدوج في منطقة الباحة، هو طريق الطائف أبها الذي يعبر مدن منطقة الباحة الرئيسية، بدءاً من جبل شمرخ ومحافظة القرى في بلدة الأطاوله شمالاً إلى مركزي بالشهم وشرى، في أقصى جنوب المنطقة، كما يوجد بعض الطرق القليلة والمزدوجة داخل مدينتي الباحة وبلجرشي، مع أن بعض تلك الطرق يعترها العديد من العقبات مثل: ضيق المساحة، أو عدم نفاذ بعضها، فقد تكون واسعة مفتوحة من ناحية، وضيقة مقفولة من ناحية أخرى^(٣).
٣. جميع الطرق المنتشرة في المدن والقرى والأرياف (بادية، وسراة، وتهامة) مكونة من اتجاه واحد، ولم أشاهد أي طريق آخر مزدوج غير ما ذكر في النقطة السابقة، ويلحظ المشاهد أن جميع المحافظات والمراكز والقرى والنوحي في عموم البلاد مترابطة بشبكة طرق معبدة، لكنها لازالت تحتاج إلى المزيد من حيث العدد والتطوير^(٤).

(١) تاريخ التجارة ببلاد الباحة خلال القرن (١٤هـ / ٢٠م) موضوع هام ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراه. ونأمل من أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أن يتخذ موضوعاً لأطروحته العلمية.

(٢) عندما نقارن مدينة الباحة أو المدينة الثانية في المنطقة (بلجرشي) مع مدن أخرى في عسير أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة وغيرها فطرق منطقة الباحة تأتي في مستوى أقل من غيرها من مناطق المملكة الرئيسية. ونأمل أن نرى بلاد الباحة في مستوى أجمل وأفضل مما هي عليه الآن. مشاهدات الباحث خلال شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م).

(٣) هذه العقبات تتواجد بنسبة أكبر في مدينة بلجرشي. وهناك مسؤولية كبيرة على الأمانة العامة للبلديات في المنطقة، ويجب عليها السعي إلى حل هذه المشاكل التي تسبب الازدحام وإعاقة السير. مشاهدات الباحث من (١٤٣٣هـ / ١٢ / ٤٢).

(٤) في السنوات العشر الماضية قمت بالعديد من الرحلات في أنحاء المملكة العربية السعودية وبخاصة جنوبها ومنطقة الباحة لازالت تحتاج إلى مشاريع أكبر وأشمل في ميدان العمارة العامة مثل: الأبنية الحكومية، وشق الطرق وتوسيعها، وتوسيع المطار، وتوفير خدمات أكثر وأوسع في مجال النقل والمواصلات. مشاهدات الباحث في أوائل شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م).

٤. في السابق هناك عقبات (طرق) صعبة وضيقة تربط بلاد تهامة بالسراة، واليوم تحولت بعض هذه العقبات إلى طرق مسفلتة تسلكها معظم السيارات^(١). ومن هذه (العقبات) ما يلي :

أ. عقبة الباحة (طريق الملك فهد) وهي أكبرها وأسهلها، وتربط مدينة الباحة مع مدينة المخواة في تهامة، بل إنها تتصل بالطرق الرئيسية التي تربط بين مكة المكرمة وعسير وجازان عبر تهامة والسراة^(٢). ويبلغ طولها من الباحة إلى المخواة حوالي (٢٥-٣٠ كم)، وتتكون من بعض الجسور وحوالي (٢٥) نفقاً. وتعد من أطول وأفضل الطرق التي تربط بين تهامة والسراة وبخاصة في منطقة الباحة وما جاورها من البلدان^(٣).

ب. عقبة الأبناء التي تخرج من قرية الأبناء جنوب محافظة بلجرشي إلى وادي الخيطان ثم بلدة نمرة في العرضية الشمالية التابعة لمحافظة القنفذة^(٤)، وهذه الطريق معبدة وتجتازها معظم السيارات الصغيرة^(٥).

ج. عقبة حزنة (طريق الملك عبد الله)، وهي معبدة تخرج من قرية حزنة في حاضرة بلجرشي وتعبر وادي ظبيان حتى مدينة المخواة .

د. طريق الملك خالد، واسمها سابقاً عقبة مساعد نسبة إلى مساعد بن رقوش، أحد شيوخ مشايخ زهران في القرن (١٤هـ/٢٠م)، وتطلق من ديار قبائل بيضان الزهرانية في السراة إلى أعالي وادي دوقة ومنه إلى محافظة قلوة في تهامة زهران، ولازال العمل جارياً على تعبيدها حتى تدوين هذه السطور^(٦).

هـ. عقبة ذي منعاء وتزل من بلدة برحرح في السروات الزهرانية وتصل إلى جرداء

(١) لقد سلطنا بعضها مع بعض الرفاق الغامديين والزهرانيين، أثناء زيارتنا لمنطقة الباحة في الفترة (٢٩-١١-١٤٣٣/١٢/٩هـ).

(٢) هناك طريقان تربطان بين الحجاز وعسير عبر بلاد الباحة . الأولى : الطريق الجبلي الذي يخرج من الطائف إلى الباحة ثم أبها . والثاني : الطريق التهامي الذي ينطلق من مكة إلى المظيلف ثم المخواة فتهامة عسير . مشاهدات الباحث في عام (١٤٣٣هـ/١٢م) .

(٣) سلك الباحث بعض العقبات التي تربط بين تهامة والسراة في كل من عسير والباحة وجازان ونجران . وكانت عقبة الباحة من أكبر وأسهل تلك الطرق . مشاهدات الباحث (١٤٣٠-١٤٣٣هـ/١٠-٢٠١٢م) .

(٤) للمزيد من التفاصيل عن محافظة القنفذة، والعرضية الشمالية وبلدة نمرة، انظر غيثان بن جريس . بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠-١٥هـ/ق١٦-٢١م) دراسة تاريخية حضارية (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) . ص ٢٥٦، ٢٥٧ . للمؤلف نفسه . القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ج٢، ص ٢٣١-٤٢٢ .

(٥) جيداً أن تجرى دراسات أكاديمية على هذه العقبة وغيرها من الدروب والمسالك التي تربط سروات الباحة بالأجزاء التهامية .

(٦) مشاهدات الباحث في الأيام الأولى من شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ/١٢م) .

بني علي في تهامة^(١). وهناك عقبة حميدة بني عمر وتنطلق من شفاء محافظة بلجرشي حتى تصل إلى المخوة، وهي طريق عادية تستخدم للرجل فقط^(٢).

وفي منطقة الباحة السروية بعض العقبات والطرق الوعرة نوعاً ما مثل: عقبة ذلالة التي تتحرف من رأس جبل شمرخ نحو الشمال الغربي وتستمر تسير في العديد من المرتفعات والأودية والهضاب حتى تصل جبال وقرى قبائل دوس الزهرانية السروية، وهذه الطريق معبدة وعرضها تقريباً يتراوح من (٨٠.٥ م)^(٣)، وطرق أخرى تهامية شبيهة بعقبة ذلالة مثل: عقبتي عرشة والمسودة وكلاهما تبدأ من وادي بطاط في تهامة الباحة وتنتهي الأولى في رأس جبل عرشة، والثانية في فرعة المسودة^(٤).

والأسواق الأسبوعية قديماً موجودة في كل ناحية من أجزاء المنطقة الباحة تهامة وسراة، وقد شاهدنا أماكن تلك الأسواق، فوجدنا أغلبها قد اندثر، ولا زال هناك بعض الأسواق الأسبوعية التي تقام حتى اليوم، لكن نشاطها لم يعد كما كان في السابق^(٥). ومن الأسواق التي شاهدناها أو سمعنا عنها ما يلي :

١. سوق السبت في مدينة بلجرشي، وسبت الغشامرة ببلدة الغشامرة في سراة غامد، وسبت النعقة ببني حسن الزهرانية، وسبت قرية الرومي غرب قرية بني سار الزهرانية، وسوق المنديق ببلدة المنديق الزهرانية، وسبت ناوان في تهامة
٢. أسواق الأحد في بلدة رعدان، وبني كبير في قرية والبلة الغامدية، وأحد الحجرة في تهامة^(٦).

(١) هذه العقبة لم نسلكها لكنها لازالت من الطرق الوعرة والصعبة التي تربط بين تهامة والسراة. مشاهدات الباحث في (١٢/٥/١٤٢٣هـ).

(٢) المتجول في المنطقة الممتدة من بلاد نجران وقحطان جنوباً إلى الطائف شمالاً يجد آثار مئات الطرق العادية التي كان يسلكها الناس قديماً عندما يذهبون من بلاد السراة إلى تهامة أو العكس. وجميع هذه الطرق أصبحت مهجورة ولا تستخدم لأنه حل محلها طرق معبدة تسلكها السيارات. وإجراء دراسة مقارنة على الطرق القديمة والحديثة التي تربط تهامة بالسراة موضوع يستحق البحث والدراسة، مع التركيز على طريقة بنائها قديماً وحديثاً، والسلبات والإيجابيات لكل نوع من هذه الدروب.

(٣) الباحث سلكها مع بعض الأخوة الزهرانيين في (٦/١٢/١٤٢٣هـ).

(٤) الباحث لم يشاهد هاتين العقبتين ولم يسلكهما، ولكن سمع عنهما من بعض رفاقه الغامديين الذين رافقوه إلى تهامة غامد في (٤/١٢/١٤٢٣هـ).

(٥) الباحث شاهد أماكن بعض هذه الأسواق وأصبحت خربة ومندثرة. والمعروف أن الأسواق الأسبوعية قديماً كانت تمثل جامعة اقتصادية واجتماعية وثقافية تعكس حياة الناس العامة. والواجب على المؤسسات المعنية بهذه الأسواق أن تحافظ عليها فتقوم بصيانتها وجعلها من الأماكن السياحية الهامة والجديرة بالزيارة.

(٦) شاهد الباحث مواقع بعض هذه الأسواق، وهي مدمرة مندثرة، بل تشغل أحياناً أماكن رئيسية ومتوسطة في بعض القرى المختلطة بالعمارة القديمة والحديثة.

٣. أسواق اثنين القرن في بلدة بني سالم بسرارة غامد، واثنين بني علي في وادي تروق دوس بن علي بزهران، واثنين بني عيسى بقرية بني عيسى في تهامة .
٤. ومن أسواق الثلاثاء : قلو، والظفير، والحميد، وبني عدوان في قرية الضحوات بزهران، وأيل نعمة في قرية نعمة بزهران^(١).
٥. وأسواق الأربعاء مثل : سوق قرية الأطاوله الزهرانية، وقد عرف أيضاً بربوع قريش، وسوق قرية الصفيح في محافظة المنطق، وفي بلدة بلخزمر الزهرانية السروية تحديداً .
٦. وأسواق الخميس، مثل خميس الباحة، ويقام في وسط مدينة الباحة، وخميس المخوة^(٢)، وخميس برحرح الزهراني، وسوق الشعراء في تهامة، وسوق الخميس في بيده بمحافظة القرى الزهرانية، وقد اندثر وتم إنشاء سوق أسبوعي جديد في وادي بيده ببادية آل زياد ويقام يوم الجمعة^(٣). وهناك سوق الخميس في قرية معشوقة الزهرانية السروية، ويقع في أسفل وادي بيده من بلاد زهران^(٤).

هذه بعض الأسواق التي شاهدناها أو سمعنا عنها، وهناك بعض الآراء أو الانطباعات التي خرجنا بها أثناء السير في المنطقة والاطلاع على أسواقها الأسبوعية، ومنها ما يلي :

١. عدم الاهتمام بهذه الأسواق سواءً من أهلها، أو من المؤسسات الحكومية المعنية مثل: البلديات، أو الإدارات التعليمية والأكاديمية، أو من الهيئة العليا للسياحة التي يجب عليها مضاعفة الجهود لصيانة ورعاية مثل هذه المعالم الحضارية .
٢. تم الاطلاع على بعض الوثائق المحلية التي أشارت إلى بعض تلك الأسواق، والقوانين التي كانت سائدة فيها، بل إن معظم تلك الوثائق لا تخلو من معارف علمية وثقافية وأدبية وفكرية تعكس حياة مجتمع منطقة الباحة في القرون الماضية المتأخرة.

(١) لم يشاهد الباحث هذه الأسواق وإنما سمع عنها من بعض الرواة الذين التقى بهم في تهامة وسرارة المنطقة.
(٢) هناك من أخبرني أن هذا السوق يقام يوم الثلاثاء، بل ذكر أنه يبدأ الثلاثاء ويبقى مستمراً إلى يوم الأربعاء .
المصدر: بعض الرواة التهاميين الغامديين الذين جرى اللقاء بهم في محافظة المخوة أثناء زيارتنا لمنطقة الباحة في الفترة (١١-٢٩-١٢/٩-١٣/٣٣هـ) .

(٣) هذا ما سمعه الباحث من بعض الرواة الزهرانيين الذين التقى بهم في وادي بيده .

(٤) المصدر نفسه .

٣. بعض أماكن الأسواق القديمة المندثرة تشكل الوجه الحضاري السيئ للنمو والتطور الذي تمر به المنطقة. وبخاصة أن مواضع بعض الأسواق تجدها وسط التمدن العمراني الحديث^(١).

والسائر في منطقة الباحة اليوم يلاحظ أنها تكتظ بالأسواق الحديثة المتنوعة في أحجامها، ومساحاتها، وأنواعها ومعرضاتها، وقد زرنا عدداً من الأسواق الكبيرة والحديثة وتجولنا في أرجائها، وأحياناً مررنا ببعضها، ومن تلك الأسواق التي شاهدنا. أسواق الغنيم في شفاء الباحة، وأسواق أبو الخير وسط الباحة في حي الجادية، وسوق التوفير مول بجوار مستشفى الملك فهد في مدينة الباحة، ومتاجر أوفرلي في بلدة رغدان بالباحة، والباحة مول في شمال المدينة. وسوق الراية شمال مدينة بلجرشي، وأسواق بن زومة وسط بلجرشي، وأسواق بن قزي في حي البركة، ومركز عبد الواحد وكلاهما وسط مدينة بلجرشي، وبلجرشي مول، وأسواق المستهلك جنوب مدينة المخواة، وأسواق الحازمي وسوق السلام. والأول في وسط مدينة المخواة، والثاني في شمالها^(٢). ولا يخلو حي أو مدينة أو قرية أو بادية أو ريف من أسواق متنوعة في المساحات والسلع المعروضة^(٣).

وهناك قليل من التشابه وكثير من الاختلافات بين الأسواق القديمة والحديثة، ونذكر بعضاً منها في النقاط التالية :

١. مارس سكان منطقة الباحة مهناً تجارية عديدة في الماضي والحاضر، وتقوم الأسواق الأسبوعية قديماً على تجارات ونشاطات السكان المحليين، ومنذ سبعينيات القرن الهجري الماضي وفد إلى المنطقة عناصر بشرية مختلفة، داخلية وخارجية^(٤)، وكانوا يرتادون الأسواق للشراء أو البيع والشراء معاً^(٥)، ومنذ نهاية القرن (١٤هـ / ٢٠م) وبداية هذا القرن (١٥هـ / ٢٠م) تزايدت الأيدي العاملة الخارجية حتى أصبحوا عماد الأعمال التجارية في أنحاء المنطقة^(٦).

(١) يجب على البلديات القريبة من بعض الأسواق المندثرة أن تصونها وترممها حتى تظهر بصورة حضارية جميلة، وإذا كانت غير قادرة على ذلك فأزالتها من أماكنها أفضل حتى لا تبقى صورة مشوهة وسط البناء والعمارة الحديثة. مشاهدات الباحث أثناء تجواله في المنطقة (١١٢٩/٩/١٢/١٤٢٣هـ).

(٢) مشاهدات الباحث أثناء زيارته منطقة الباحة في (١١/٢٩ - ١٢/٩/١٤٢٣هـ).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) جاء إلى المنطقة بعض الموظفين من السعوديين الذين قدموا من مناطق أخرى، أو من الوافدين من بلدان عربية، وجميعهم عملوا في مؤسسات إدارية مختلفة وشاركوا سكان منطقة الباحة اجتماعياً واقتصادياً.

(٥) الموظفون والأيدي العاملة الأخرى مثل اليمنيين وغيرهم شاركوا أهل البلاد في أسواقهم وتعاملاتهم الاقتصادية والحضارية.

(٦) الناظر اليوم في جميع الأماكن التجارية يجد أن الأيدي العاملة الخارجية منتشرة في أنحاء المنطقة، بل هم المحرك الاقتصادي الرئيس لهذا القطاع الحضاري الهام.

٢. يظهر عدم التنظيم أثناء عرض السلع المراد بيعها في الأسواق الأسبوعية، وإنما تعرض بشكل عشوائي، وعند انتهاء السوق تنقل أيضاً بطريقة عشوائية^(١)، أما الأسواق الحديثة فهي ذات وضع أفضل وأجمل في العرض والبيع والشراء والخزن^(٢)، ومعظم السلع قديماً محلية مثل: الحبوب، والخضروات، والفواكه، وبعض الألبسة، والحيوانات والطيور الأليفة المختلفة: كالأبقار، والجمال، والحمير، والدجاج، والحمام وغيرها، والقائمون على بيع وشراء هذه السلع من أهل البلاد نفسها^(٣)، وفي وقتنا الحاضر أصبحت الأسواق تحتوي على آلاف الأنواع من البضائع المستوردة، وانصرف أبناء غامد وزهران عن العمل في التجارة^(٤)، حتى وإن كانوا أصحاب الأموال التي قامت بها الأسواق التجارية، وإنما يوظفون أيدٍ عاملة خارجية وأحياناً داخلية لممارسة النشاطات التجارية المختلفة^(٥).

٣. طرق المواصلات بين الأسواق الأسبوعية قديماً قليلة ووعرة وضيقة في مساحتها الجغرافية، بعكس الطرق التجارية اليوم فهي مهيأة معبدة، وغالباً مضاءة، وتسلكها جميع أنواع السيارات^(٦).

٤. تم الاطلاع على عشرات الوثائق والعقود والاتفاقيات التي تدور حول بناء وتنظيم وإدارة الأسواق الأسبوعية القديمة والأسواق التجارية الحديثة والمعاصرة، فأتضح لنا العديد من الانطباعات والاستنتاجات التي نذكر أهمها في النقاط التالية:

- لغة هذه الوثائق والاتفاقيات يظهر عليها الركاكة والأخطاء النحوية والإملائية وبخاصة ما يتعلق بوثائق الأسواق الأسبوعية، والوثائق الحديثة لا تخلو أيضاً من ذلك مع تضمينها أحياناً بمصطلحات ومفردات أجنبية، وغالباً من اللغة الإنجليزية أو بعض اللغات الأوربية الأخرى^(٧).

(١) مشاهدات الباحث لعدد من الأسواق الأسبوعية في جنوبي البلاد السعودية خلال العقد الماضي.

(٢) هذا ما عاصره الباحث في نواح عديدة بجنوبي البلاد السعودية منذ ثمانينيات القرن (١٤/هـ/٢٠م).

(٣) معاصرة الباحث لهذه المظاهر منذ نهاية القرن (١٤/هـ/٢٠م).

(٤) هذه الظاهرة موجودة في جميع الأسواق التجارية في المملكة، وقليلاً ما ترى الفرد السعودي يعمل في الأعمال التجارية المختلفة مثل: بيع الألبسة وأدوات الزينة، أو المواد الغذائية، وغالباً يعملون في تجارة العقارات وربما عمل بعضهم في تجارة الذهب وغيرها. مشاهدات الباحث خلال الثلاثة عقود الماضية المتأخرة.

(٥) تجولنا في نواح عديدة من منطقة الباحة وزرنا بعض أسواقها التجارية الحديثة الصغير والمتوسطة والكبيرة فوجدنا غالبية العاملين في هذا القطاع الاقتصادي الهام من الأيدي العاملة المستقدمة من خارج المملكة العربية السعودية.

(٦) جميع الطرق القديمة تستخدم مشياً على الأقدام، وتسلكها أيضاً الجمال والحمير التي كانت تنقل البضائع بين الأسواق والمدن والقرى. وفي العقود الأخيرة من القرن (١٤/هـ/٢٠م) كان هناك طرق محدودة استخدمت فيها بعض السيارات، ثم توسعت شبكة الطرق البرية حتى أصبحت السيارة تصل إلى كل مكان في المنطقة، ومن ثم صارت الوسيلة الرئيسية لنقل البضائع في أرجاء البلاد، هذا ما شاهدته وسمعه الباحث من بعض الرواة الغامديين والزهرانيين أثناء رحلته في المنطقة (١١.٢٩/٩.١٢/١٤٣٣هـ).

(٧) دراسة اللغة واللهجات في الأسواق الأسبوعية القديمة والحديثة والمعاصر موضوع هام ويستحق البحث والدراسة. ونأمل من بعض المتخصصين في قسم اللغة العربية بجامعة الباحة أن يلتفتوا إلى مثل هذا الجانب المعرفي فيخدم بدراسات أكاديمية علمية.

- كانت العشيرة أو القبيلة التي يقام فيها السوق الأسبوعي هي التي تصدر الوثائق الخاصة بأسواقها، ومعظم النصوص التي ترد في هذا النوع من الوثائق تؤكد على حماية السوق وحرمة دماء وأموال وأعراض كل من يرتاده، وإذا حدث ما يهدد أمن الأسواق فإن القبيلة التي يقام في أرضها السوق هي المسؤولة عن كل ذلك^(١)، أما اتفاقيات وعقود الأسواق الحديثة، فهناك عقود فردية وأحياناً جماعية بين أصحاب البضائع وأماكن الأسواق، كما أن هناك عقوداً بين شركات أو مؤسسات تجارية وبين ملاك الأراضي التي تقام عليها الأسواق. كما أن للبلديات والغرف التجارية ومؤسسات إدارية أخرى إسهامات واضحة ومعروفة نظامياً وإدارياً أثناء بناء أي سوق صغيراً كان أو كبيراً^(٢).

ج- السلع، الأسعار، التعاملات تجارية :

كما أشرنا سابقاً إلى قلة السلع قديماً لندرة المال في أيدي الناس، وضعف الاقتصاد، إلا أن الأسواق الأسبوعية كانت تقوم على احتياجات الناس محلياً أو ما يُصدر إليها من بعض الأسواق والمراكز المجاورة أو القريبة من منطقة الباحة. وبعد اتساع شبكة الطرق، ودخول البلاد مرحلة من النمو والتطور التاريخي والحضاري^(٣)، اتسع نطاق التجارة حتى صارت المنطقة تعج بألاف الأسواق والمتاجر الصغيرة والكبيرة، وأصبح الإنسان غير قادر على حصر البضائع المعروضة للبيع والشراء، والتي جاء معظمها من خارج حدود المملكة العربية السعودية^(٤).

أما الأسعار فهو موضوع مهم، ومن الصعب الإلمام به في صفحات محدودة، لكننا سوف نورد نماذج عديدة لأسعار بعض التجارات القديمة والحديثة والمعاصرة، وذلك

(١) جمع الباحث وثائق عديدة عن بعض الأسواق الأسبوعية في منطقة الباحة ويتطلع في المستقبل إلى أن يقوم بدراستها ونشرها (بإذن الله تعالى) .

(٢) نظام الأسواق الحديثة والمعاصرة، وما يدور حولها من عقود واتفاقيات، وتعاون المؤسسات الإدارية الحكومية في النظم والإجراءات الخاصة ببناء أو فتح سوق تجاري جديدة بالبحث والدراسة، ونأمل من أقسام التاريخ والجغرافيا، والإدارة، والتسويق في جامعة الباحة أن تولي مثل هذه الموضوعات أهمية كبرى في بحوثها ودراساتها .

(٣) تاريخ التنمية في منطقة الباحة موضوع جدير بالبحث والدراسة، ونأمل من جامعة الباحة أن تشجع بعض البحوث العلمية التي تصب في هذا المجال الحضاري الهام .

(٤) حصر السلع المعروضة في الأسواق الحديثة والمعاصرة موضوع كبير ويحتاج إلى مجلدات حتى يتم معرفة أسماء هذه البضائع، وأنواعها، وأماكن صنعها، وطرق استيرادها، والسلبات والإيجابيات المصاحبة لهذه السلع. كما أن إجراء دراسة مقارنة بين صادرات وواردات منطقة الباحة في العصر الحديث والمعاصر، وفي القرون الماضية المتأخرة موضوع هام ويستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة ماجستير أو دكتوراه، ونأمل أن نرى إحدى طلابنا في برامج الدراسات العليا في جامعات الجنوب فيتخذ عنواناً لأطروحة .

من خلال ما سمعنا،^(١) أو شاهدنا^(٢).

الأسعار في ستينيات القرن الهجري الماضي وما سبقه ضئيلة جداً، فهي تقدر بالهلال والقروش، وكانت المقايضة من المعاملات الرئيسية بين سكان منطقة الباحة^(٣)، ومنذ سبعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) نجد الأسعار لازالت قليلة، وصارت ترتفع تدريجياً حتى بداية القرن (١٥هـ/٢٠م). فالمواد الغذائية مثل: الحبوب (القمح، والشعير، والذرة، والدجر، والبلسن وغيرها) تباع بالصاع. وقد يباع المد أو المدين وربما الأربعة والخمسة بربع ونصف وثلاثة أرباع الريال في أوائل السبعينيات (ق ١٤هـ/٢٠م)، وذلك حسب نوعية الحب المباع، فالقمح أعلى من الذرة والشعير^(٤)، ثم تصاعدت أسعار هذه السلع حتى وصلت إلى الريال والريالين والثلاثة في أواخر تسعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م) وبداية القرن (١٥هـ/٢٠م)^(٥)، ثم ارتفعت أسعار هذه السلع حتى أصبح سعر المد في وقتنا الحالي عشرة ريالات وأكثر لحبوب القمح وأحياناً الذرة والشعير^(٦)، واستمرت جميع الأطعمة والأشربة بمنطقة الباحة تسير في هذا التزايد التدريجي في الأسعار حتى أصبحت عالية وشاقة في وقتنا الحاضر، بل إن الأسر الفقيرة والمتوسطة وما دونها تعاني بشكل كبير في توفير طعامها وشرابها^(٧).

(١) لقد سمعنا روايات كثيرة عن الأسعار قديماً، ومن ينظر إلى وثائق القرن (١٤هـ/٢٠م) غير المنشورة يجدها مليئة بالمادة العلمية الجديدة التي تشرح أسعار البضائع والسلع المختلفة في أسواق المنطقة، كما أن بعض من هذه الوثائق تعكس تاريخ النقل والأجور والعاملين في التجارات المختلفة. ومثل هذا الموضوع يستحق أن يكون رسالة ماجستير أو دكتوراه، نرجو من إحدى طالباتنا أو طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أن يتخذ موضوعاً لأطروحته، فهو من الموضوعات الجديدة والجديرة بالبحث والدراسة.

(٢) تاريخ الأسعار في منطقة الباحة منذ بداية القرن (١٤هـ/٢٠م) إلى وقتنا الحاضر موضوع جيد ويستحق أن يكون بحثاً علمياً أكاديمياً مطولاً في مئات الصفحات. والباحث في الوثائق والمصادر والمراجع، والمدونات، والمذكرات، والمقابلات وبخاصة مع من عملوا في التجارات منذ القرن الماضي إلى يومنا هذا فإنه سوف يجمع مادة علمية جديدة وجيدة تسحق النشر وتعكس التطور التاريخي للأسعار في المنطقة.

(٣) لقد اطلعت على مئات الوثائق غير المنشورة التي تعكس تاريخ الأسعار والرواتب والأجور في بلاد تهامة والسرارة الممتدة من الطائف وجنوبي مكة إلى جازان ونجران وبخاصة منذ الثلاثينيات إلى نهاية ستينيات القرن الهجري الماضي فوجدتها قليلة جداً. فأسعار الجمل، أو الثور، أو الخروف، أو الماعز تقدر بالهلال وأحياناً بالقروش مثل: ربع أو ثلث أو نصف الريال. وقس على ذلك جميع البضائع والسلع التي كانت تعرض في أسواق هذه المنطقة الشاسعة، وبلاد الباحة جزء بسيط من هذه الأوطان. ومن يدرس هذا الموضوع ويطلع على الوثائق التي تصب في خدمته فسوف يجد مادة علمية قيمة وجديدة في بابها، وهي جديرة بالبحث والنشر.

(٤) هذا ما وجدته في بعض الوثائق الاقتصادية في منطقة الباحة وسمعته أيضاً من بعض الرواة الزهرانيين والغامديين في فترة زيارتنا (٢٩/١١-٩/١٢/١٤٣٣هـ).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) هذا ما شاهدته في بعض أسواق منطقة الباحة السريوية والتهامية.

(٧) هذا ما شاهدته في أسواق منطقة الباحة وسمعته من بعض أرباب الأسر في المنطقة بل إن هذه المشكلة عامة على الشعب السعودي والعربي والإسلامي والعالمي.

وأسعار الألبسة وأدوات الزينة مرت في الخطوات التي حدثت لسلع الطعام والشراب، فجميع ألبسة الرجال والنساء والأطفال لا تتجاوز الهلّل في منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م)، وذلك للباس الواحد، وقد تدخل في خانة الريالات إذا كانت ملابس عديدة^(١) وهكذا تدرجت حتى أصبح سعر الثوب في تسعينيات القرن الهجري الماضي يقدر بـ (٥-١٥) ريالاً، وربما كان أقل من ذلك أو أكثر حسب نوعية القماش، والأردية أحياناً مثل: العباءة، والشملة وغيرها قد تكون أعلى بنسبة بسيطة^(٢)، والناظر في أسواق المنطقة منذ عقدين أو ثلاثة حتى يومنا الحالي يجد الأسواق امتلأت بأنواع كثيرة من الألبسة والزينة، وغالبيتها مستوردة من خارج البلاد السعودية، وأسعارها تتراوح من الخمسة وعشرة إلى المئات وأحياناً آلاف الريالات. وقد تدخل بعض أدوات الزينة مثل: الذهب والألماس والأحجار الكريمة في مئات الآلاف^(٣).

أما بيع وشراء العقارات مثل: الأراضي الزراعية والسكنية، والمنازل ومرافقها فكانت بسيطة جداً في الخمسينيات والستينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م) فقد تباع مزرعة مساحتها (٥٠×٥٠م) أو (١٠٠×١٠٠م) بنصف ريال وربما وصل سعرها إلى ريال أو ريالين حسب جودتها، وأحياناً قد تباع بمقايضة مد أو مدين أو ثلاثة من بر، أو ذرة، أو شعير، أو تيس، أو خروف^(٤)، ثم ارتفعت أسعار الأرض تدريجياً حتى نهاية القرن (١٤هـ/٢٠م) وأصبحت أسعار بعض الأراضي الزراعية تقدر بـ (٥٠٠٠-٢٠٠٠٠) وربما (٣٠،٠٠٠) ألف ريال، وكذلك الأراضي السكنية تقريباً بنفس الأسعار وبخاصة في القرى والأرياف أما المدن والحواضر مثل: الباحة، وبلجرشي، والمندق، والمخوة فقد ارتفعت أسعار أراضيها وعمائرهما حتى دخلت عشرات وأحياناً مئات الآلاف^(٥)، ومنذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) نلاحظ أسعار العقارات ترتفع بشكل سريع وكبير، فالأرض التي كانت تباع بريالات معدودة في حاضرة الباحة في النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) أصبحت تباع اليوم بمئات الآلاف، وربما دخلت خانة الملايين، وذلك حسب مساحتها وموقعها^(٦). والمنازل - أيضاً - التي كانت تباع بعدد من الريالات دخلت خانة العشرات في الستينيات والسبعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، ونجد أسعارها اليوم تقدر بمئات الآلاف، وهناك

(١) كان الكثير من الأسر تعاني من الحصول على الألبسة وبخاصة في البوادي والأرياف والقرى وقد لا يكون عند الفرد إلا لباس واحد لفترة طويلة، ومن الأنواع الرديئة .

(٢) هذا ما وجده الباحث في بعض الوثائق، وسمعه من بعض الرواة الذين عملوا في مجال التجارة في نهاية القرن (١٤هـ) وبداية القرن (١٥هـ/٢٠م) .

(٣) هذه الأسعار تكاد تكون سائدة في مناطق الباحة وعسير وغيرها من مدن وحواضر المملكة . وقد شاهدت ذلك وسمعتة من كثير من الباعة والتجار أثناء تجوالي في نواحي عديدة من البلاد السعودية خلال العشرين سنة الماضية .

(٤) هذا ما وجدناه في بعض الوثائق غير المنشورة وسمعناه من بعض المسنين في منطقة الباحة .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) هذا ما لمستته في بعض مكاتب العقار في منطقة الباحة في الفترة من (٢٩/١١-٩/١٢/١٤٢٣هـ) .

عمائر ومنازل كبيرة في حواضر منطقة الباحة مثل: الباحة، وبلجرشي، والمخوة، والمندق وصلت أسعارها إلى عشرات وأحياناً مئات الملايين^(١).

وعند تجوالنا في بعض الأسواق الأسبوعية في منطقة الباحة وسؤالنا عن أسعار بعض الأدوات المختلفة والمستخدمة في مهن الزراعة والتجارة وصنع الطعام والشراب، والحدادة والصباغة والدباغة والخرازة وغيرها . وجدنا أسعارها تتراوح من خمسة أو عشرة ريالات إلى المئة والخمسمائة والألف والألفين وربما أكثر، وذلك حسب نوعية الأداة المباحة، وحجمها وجودة صنعها. فمثلاً السيوف والخناجر التي يصنعها الصاغة والحدادون قد تصل أسعار بعضها إلى الآلاف من الريالات، وربما وجد منها بعض الأنواع تباع بالخمسمائة والألف . كذلك أدوات الحرث والزراعة القديمة تتراوح أسعار بعضها من العشرة والمئة ريال إلى الخمسمائة والألف ريال^(٢)، وهناك بعض الصناعات الجلدية أو المنسوجات من القماش أو الخصف تتراوح أسعارها بين العشرات والمئات من الريالات^(٣).

وهناك بعض التعاملات التجارية التي عرفتها منطقة الباحة . مثل المقايضة بين التجار وعامة الناس، فالزارعين مثلاً يقايضون حبوبهم مع تجار الأقمشة وبعض أدوات الزينة، وهكذا تتم عملية المقايضة، وذلك لندرة النقود المتداولة بين أيدي الناس^(٤) كما ظهرت بعض العملات المتداولة بين الناس مثل: الريال المجيدي نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد بن محمود (١٢٥٥-١٢٧٨هـ / ١٨٣٩-١٨٦١ م)، وكانت هذه العملة مصنوعة من الذهب والفضة ومتداولة في جميع أقطار البلاد العربية، بالإضافة إلى عدة عملات عثمانية ضربت في مصر ووصل التداول بها إلى منطقة الباحة وما جاورها من بلدان الحجاز وتهامة والسراة واليمن^(٥)، ثم أعقب ذلك التعامل بالعملات السعودية المعدنية والورقية^(٦).

- (١) هذا ما وجده الباحث عند سؤال بعض العقاريين في منطقة الباحة في الفترة (٢٩/١١ - ١٢/٩/١٤٢٣هـ) .
- (٢) مشاهدات ومقابلات الباحث أثناء تجواله في أسواق منطقة الباحة الأسبوعية في الفترة من (٢٩/١١ - ١٢/٩/١٤٢٣هـ) .
- (٣) المصدر نفسه . ونلاحظ أن جل العاملين في هذه الصناعة من العمالة الوافدة، وقد يعمل معهم بعض السعوديين، وتتراوح أجور العامل اليوم بين (٥٠٠ - ٢٠٠٠) ريال في الشهر، وربما عمل بعضهم بالنسبة مع مكفوله السعودي فقد يكون لكل واحد منهم (٥٠٪) من سعر السلعة الواحدة . وإذا قارنا أجور عمالة اليوم مع عمالة القرن (١٤هـ/٢٠م)، لوجدنا فرقا كبيرا فقد كانت أجور العمالة آنذاك لا تتجاوز القروش وأحياناً الريالات، وربما حصل العامل على أجرته من المهنة التي يمارسها . فالزارع مثلاً يأخذ أجوره من محاصيل الزراعة التي يقوم على خدمتها، وهكذا تسير الأمور مع التجارات والمهن والسلع الأخرى .
- (٤) تاريخ المقايضة في جنوبي البلاد السعودية خلال القرون الماضية المتأخرة موضوع يستحق إلى أن يفرده له دراسة علمية أكاديمية موثقة .
- (٥) للمزيد عن العملات في مناطق الباحة وعسير وجازان وما جاورها خلال القرن (١٣هـ/١٩م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) . انظر: علي أحمد عيسى عسيري . عسير من (١٢٤٩-١٨٢٢ م - ١٢٨٩/١٢٨٧٢م) (أبها: مطبوعات نادي أبها، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٤٠٧ - ٤١٠ .
- (٦) لمزيد من التفاصيل عن العملات في مناطق الباحة وجازان وعسير خلال العهد السعودي الحديث انظر، غيثان بن جريس . عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠-١٤٠٠هـ / ١٦٨٨-١٩٨٠م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ١٨١، ١٨٧ .

أما الأوزان والمكاييل والمقاييس فلا نجد مصادر موثوقة تشرح لنا كيفية التعامل معها . فالوزن أو الكيل، لم يعرف عند سكان منطقة الباحة ما يسمى بـ (الكيلو جرام) إلا في العقود الماضية القريبة^(١). وقبل استخدام الكيلوجرام كانوا يستخدمون نظام الأقة، والرطل، والأوقية، والدرهم، والأقة قطعة مصنوعة من الحديد، عرف منها الأقة الواحدة، ونصف وربع الأقة، وربما كانت تصنع خارج بلاد الباحة، وبخاصة في المدن الكبرى من شبه الجزيرة، أو الشام، ومصر وغيرها، وهذه الأداة تساوي أربعمائة درهم، أو رطلين ونصف، أو اثنين وثلاثين أوقية، وتزيد عن وزن الكيلو جرام الواحد في وقتنا الحاضر^(٢)، والرطل اثنتا عشرة أوقية، أو ما يقارب اثني عشر ريالاً فرنسياً، ومن أجزائه نصف الرطل، والربع، والثلث، أما الأوقية الواحدة فتساوي اثني عشر درهماً. وجميع الأدوات السابقة تستخدم في وزن السوائل مثل: السمن والعطور وغيرها، والبخور، والتوابل، وبعض المواد الغذائية الخفيفة، كالهيل، والبن والزعفران وغير ذلك من المعادن الثمينة والأطياب الغالية، ويستخدم في هذا ما يسمى بـ (الميزان)^(٣).

أما وحدة الكيل فتستخدم بالدرجة الأولى في كيل الحبوب وما شابهها، ومنها المد، والصاع، والفرق، والأردب، والكيلا، والقحح، والوسق وغيرها. فالمد يساوي ثلاثة أقد، وعرف منه المد الكامل، ونصف المد وربعه وثمانه، وكانت تعتمد بمقاييس موحدة في أنحاء بلاد غامد وزهران، وتصنع في الأساس من الخشب^(٤). والإردب وحدة من وحدات المكاييل، ويساوي اثني عشرة كيلا، والكيلا تساوي أربع أقد، وهو ماعون أسطواني أو مستطيل الشكل مصنوع من الخشب، ومخرم من الخارج بأطر من الحديد ومنه نصف الكيلا وربعها وثمانها، وهي تساوي ثمانية أقداح، والقحح وحده من وحدات المكاييل^(٥).

وأدوات الوزن والكيل غير متوفرة في كل مكان من بلاد الباحة، وأغلب وجودها في الأسواق الكبيرة، وأحياناً توجد عند التجار الكبار، وربما توفر بعضها، كالمد والصاع عند بعض أفراد المجتمع، وبخاصة الذين يمارسون مهنة الزراعة والتجارة . وعرف البيع

(١) هذا ما سمعه الباحث من بعض التجار الكبار في منطقة الباحة، والذين عاصروا فترة الخمسينيات والستينيات من القرن (١٤/هـ/٢٠م) .

(٢) للمزيد انظر، مغربي، محمد علي . ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن (١٤/هـ/٢٠م) (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص ١٦٠، مبارك محمد المعبد . النظم الإدارية والمالية في تهامة عسير خلال الإشراف السعودي (١٣٥١، ١٣٤٥هـ) . (جدة : شركة دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٤٠٦هـ)، ص ٩٤، ٢٠٤ .

(٣) مشاهدات ومقالات الباحث مع بعض التجار الزهرانيين والغامديين في الفترة (٢٩-١١ / ٩-١٢ / ١٤٢٣هـ) .

(٤) المصدر نفسه . دراسة هذه الوحدات جديرة بالبحث والتدوين، ونأمل من طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بجامعة جنوبية البلاد السعودية أن تولي مثل هذا الموضوع أهمية في بحوثها ودراساتها .

(٥) مغربي، ملامح الحياة الاجتماعية، ص ١٦٠ .

بالجملة، فقد لا تكال ولا توزن السلع التي يراد بيعها، وإنما توضع على هيئة أكوام، أو في أكياس كبيرة، ثم تقدر أسعارها نظرياً ويتم بيعها^(١).

لم يكن هناك أدوات تستخدم في القياس، كالمتر والكيلومتر إلا بعد ظهور الحكم السعودي الحالي، وخصوصاً في العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م)، لكن الأراضي الزراعية والمواقع التي تقام عليها المساكن تقاس بالخطوة أو القدم عند الرجال، وهناك بعض الأسماء التي تطلق على الأراضي الزراعية مثل: الفلق: وهو جزء صغير من القطعة الزراعية الكبيرة. والشقة وأحياناً الركيب وهي: القطعة الزراعية المحدودة بحدود واضحة من جميع أطرافها بصرف النظر عن مساحتها. والزهب: وهو ما يكون محدوداً بحدود معلومة وملاصقاً لقطع زراعية أخرى تكون أكبر منه في المساحة وأحسن في نوعية التربة^(٢).

ومن المقاييس- قبل استخدام المتر- الذراع: وهو ذراع اليد، وبخاصة في مناطق الأرياف وأسواق البادية. والهنداسة: وهي قطعة حديدية رفيعة. والذراع والهنداسة يستعملان في قياس الألبسة والأقمشة وما شابهها^(٣).

٦- معوقات الحياة الاقتصادية :

العقبات التي واجهت الأوائل في منطقة الباحة وغيرها من أجزاء شبه الجزيرة العربية كثيرة وتحتاج إلى دراسة وافية وموثقة في جميع جوانب الحياة^(٤). وما سوف ندرجه في السطور التالية ليس إلا شذرات لنبين للقارئ الكريم ما عانى منه الأوائل، وما يعانيه أهل المنطقة اليوم في حياتهم الاقتصادية. ومن تلك المعوقات ما يلي :

١. غلاء الأسعار في الأسواق والبوادي. وهذا ما سمعته من بعض المسنين في منطقة الباحة حيث ذكروا لنا غلاء الأسعار الذي عرفته المنطقة في بعض عقود القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)^(٥). وأشاروا إلى أن القحط الذي ساد البلاد وقلة سقوط الأمطار كان من الأسباب الرئيسية لارتفاع أسعار السلع الرئيسية

(١) مقابلة الباحث مع بعض تجار غامد وزهران الذين عاصروا ستينيات وسبعينيات القرن (١٤هـ/٢٠م)، وذلك في الفترة التي زار فيها المنطقة لجمع مادة هذا القسم (١١.٢٩-١٢/٩-١٤٣٣هـ).

(٢) مشاهدات الباحث ومقابلاته مع بعض الغامديين والزهرانيين أثناء زيارته مناطقهم بهدف جمع مادة هذا القسم في (١١/٢٩-١٢/٩-١٤٣٣هـ).

(٣) المصدر نفسه. والعملات والمكاييل والمقاييس والأوزان في منطقة الباحة موضوع هام وجدير بالدراسة المقارنة التي تصور كيف كانت في الماضي وكيف أصبحت اليوم. ونأمل أن نرى أحد أبنائنا في أقسام التاريخ السعودية فيتخذ هذا العنوان موضوعاً لرسالة ماجستير أو دكتوراه.

(٤) دراسة العقبات والمعوقات التاريخية والحضارية في منطقة الباحة خلال القرون الماضية المتأخرة موضوع هام ويستحق إلى أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراه. ونأمل أن نرى أحد من طلابنا يتولى هذا الموضوع بالبحث والدراسة والتوثيق.

(٥) ما سمعه الباحث من بعض كبار السن في منطقة الباحة خلال زيارته لها في (١١/٢٩-١٢/٩-١٤٣٣هـ).

والضرورية^(١)، والناظر اليوم في أسواق منطقة الباحة وغيرها يجد الأسعار عالية جداً، وأصحاب الدخل القليل يعانون من ضيق الحياة في شتى الجوانب، بالإضافة إلى عدم وجود الأموال التي تساعدهم على تصريف شؤون حياتهم اليومية^(٢).

٢. كانت صعوبة المواصلات قديماً عائقاً رئيساً في نقل البضائع والتجارات من مكان لآخر، بالإضافة إلى قلة وسائل النقل، فليس كل واحد يستطيع أن يمتلك جملاً أو حماراً ينقل عليه سلعه واحتياجاته^(٣)، مع وجود بعض اللصوص وقطاع الطرق الذين يعترضون العاملين في مجال التجارة فيقومون بسلبهم وإيذائهم في أنفسهم وأموالهم^(٤)، وفي عصرنا الحالي توفرت شبكة طرق جيدة ووسائل نقل مريحة، لكن كثرة الحوادث المرورية أصبحت من المشاكل الرئيسية التي أودت بالكثير من الأرواح والأموال والعقارات والتجارات وغيرها^(٥).

٣. في السابق كانت الحروب والصراعات والثارات القبلية من العقبات الرئيسية التي تولد الخوف وفقدان الأمن عند السكان، بالإضافة إلى ما ينتج عن ذلك من دمار وخراب في الأموال والعقارات والأرواح^(٦).

(١) نجد بعض المصادر تشير إلى غلاء الأسعار وانتشار الجوع والقحط بين سكان شبه الجزيرة العربية . فيذكر ابن بشر وأيوب صبري باشا بأن الأعوام (١٠٤٦هـ ، ١٠٤٧هـ ، ١٠٨١هـ ، ١٢٢٠هـ ، ١٢٤٣هـ ، ١٢٢٩هـ ، ١٣٢٣هـ ، ارتفعت فيها الأسعار، وقتل الأمطار، وساد الجوع والفقر بين الناس . للمزيد انظر : عثمان بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد (القاهرة، ١٩٧٢م)، ج١، ص٤٦، ٥٢، أيوب صبري باشا. مرآة جزيرة العرب . ترجمه من اللغة التركية إلى العربية أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي (الرياض: دار الرياض للنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م)، ج١، ص١٤٣ .

(٢) هذا ما لمسّه وسمعه الباحث من عدد من الأفراد والأسر في منطقة الباحة أثناء زيارتها في (٢٩/١١/١٢/١٤٢٣هـ) .

(٣) كانت معظم الأسر تمتلك حماراً وربما أكثر من أسرة، وأحياناً تشترك جميع الأسر ، أو الفخذ أو القرية في جمل أو جملين فقط .

(٤) لم تكن أعمال اللصوص مقتصرة على مهاجمة التجار وسرقة ما بأيديهم، لكنهم كانوا يقتحمون المزارع والبساتين أثناء الليل، وكان البعض منهم يهاجمون البيوت فيسرقون بعض المواشي أو ما يجدونه في المنازل التي يدهمونها، والحاجة وانتشار الجوع بين الناس هما السببان الرئيسان اللذين يدفعان اللصوص للقيام بالسرقة وإيذاء الناس. هذا الموضوع جدير بالدراسة، نأمل أن نرى أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد (برنامج الدراسات العليا) فيتخذ هذا العنوان موضوعاً لأطروحتة وبخاصة في القرن (١٤هـ/٢٠م)، وذلك لوفرة الرواة المعاصرين، وبعض الوثائق الجديرة بالدراسة.

(٥) هناك نسب عالية في ميدان الحوادث المرورية، والكثير من الأموال والتجارات والأرواح تذهب نتيجة لهذه الأخطار، حبذا أن نرى أحد أكاديمي جامعة الباحة فيدرس هذا الجانب مع رصد الإيجابيات والسلبيات له، وذكر الوسائل والحلول التي يجب أن تتبع للتخفيف من آثاره السيئة .

(٦) دراسة تاريخ الأمن في منطقة الباحة خلال القرنين (١٤٠١٣هـ/٢٠١٩م) موضوع جديد وجدير بالبحث والدراسة، ويستحق إلى أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية أكاديمية، وهناك مئات الوثائق الجديدة وغير المنشورة التي تصب في خدمة مثل هذا العنوان.

٤ . هناك بعض الآفات والأوبئة التي تحل بالمرزوعات مثل الجراد والديدان وغيرها، وتذكر بعض الروايات المدونة والمسموعة إلى اجتياح الجراد لمنطقة الباحة خلال بعض الأعوام من القرنين (١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م)، وقد ألحقت أضراراً بالغة بمحاصيل المزارعين، أو ببعض الأشجار المثمرة^(١).

٥ . كانت الأيدي العاملة محدودة في جميع المجالات الاقتصادية خلال القرن (١٣هـ/٢٠م) والثمانية عقود الأولى من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وكانت غالباً مقصورة على سكان البلاد الأصليين^(٢)، والزراعة من أهم المهن الرئيسية والنشطة آنذاك^(٣). ومنذ نهاية القرن (١٤هـ/٢٠م) وبداية القرن (١٥هـ/٢٠م) تلاشت الزراعة حتى أصبحت شبه معدومة^(٤)، وتطورت المهن الاقتصادية الأخرى وبخاصة الأعمال التجارية والصناعية، ومن ثم تراجع انخراط السكان المحليين في هذه الحرف، وحل محلهم العمال الوافدون من بلدان عديدة في العالم العربي والإسلامي وغير الإسلامي^(٥)، وهذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية أثرت سلباً على أبناء البلاد فانتشرت بينهم البطالة والالتكالية وأحياناً اللامبالاة وعدم الاكتراث وبخاصة بين جيل الشباب^(٦).

خامساً : الأوضاع التعليمية والفكرية والثقافية :

١- التعليم :

لم تكن بلاد غامد وزهران خالية من النشاطات العلمية والثقافية والفكرية، والباحث في كتب التراث الإسلامي المبكر يجد أن أهل هذه البلاد تلقوا بعضاً من العلوم الشرعية والعربية منذ فجر الإسلام وبخاصة عندما وفد إليها بعض الصحابة (رضوان الله عليهم)، كما هاجر منها بعض أهلها حتى التقوا بالرسول (ﷺ) وصحابه في المدينة

(١) هذا ما سمعه الباحث من بعض المسنين في مناطق الباحة وعسير للمزيد انظر : غيثان بن جريس- عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ١٩٠، ١٩١.

(٢) ما قرأه الباحث وشاهده وسمعه أثناء الدراسة والتجوال في منطقة الباحة وما جاورها من المناطق خلال الثلاثين عاماً الماضية .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) معاصرة الباحث لهذه التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في جميع أجزاء المنطقة الجنوبية منذ عام (١٣٩٥-١٤٣٤هـ/١٩٧٥-٢٠١٣م) .

(٦) المصدر نفسه . والثابت أن هناك أموالاً كبيرة جداً تجنى من قبل الأيدي العاملة الأجنبية نتيجة عملهم في هذه المهن الاقتصادية الهامة والمربعة، ومن باب أولى أن يعمل الشباب المحلي في هذه الأعمال ويكسبوا منها أرباحاً طائلة .

المنورة^(١)، وهكذا استمرت منطقة الباحة على صلات ثقافية وحضارية خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة^(٢).

ومنذ القرنين (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م) نجد عدداً من أبناء غامد وزهران يهاجرون من بلادهم بهدف كسب العيش وطلب العلم، وكانت شرعتهم إلى مدن الحجاز الرئيسية (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، أو اليمن، أو الشام، أو مصر، أو إريتريا وغيرها، ومنهم من يذهب للبقاء في بعض هذه البلدان لفترة وجيزة ثم يعودون إلى مسقط رؤوسهم لتعليم أبناء بني جلدتهم. والبعض من أولئك المهاجرين تنقل في بلدان عديدة بهدف التعليم والتعلم، وكانت تصل غربة بعضهم إلى العشر والعشرين سنة، ثم يعودون إلى وطنهم الرئيس، أو يستقرون أحياناً في بعض حواضر شبه الجزيرة العربية الرئيسية مثل: مدن اليمن أو الحجاز الكبرى^(٣).

والباحث في مصادر ومراجع تاريخ منطقة الباحة يلحظ أسماء عدد من الأسر العلمية التي قامت بنشر العلم والثقافة والدعوة والإفتاء والإصلاح بين سكان المنطقة وبخاصة منذ القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) حتى القرن (١٤هـ/٢٠م)^(٤). وهناك عشرات الكتابات المتناثرة في بلاد غامد وزهران (تهامة وسراة)، وكان القائمون عليها من الفقهاء وبعض طلاب العلم الذين تلقوا تعليمهم في أماكن عديدة داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها^(٥)، وغالبية هذه الكتابات كانت للذكور التي تتراوح أعمارهم من (١٠ سنوات إلى ٢٠، و٣٠، و٤٠ سنة)، وكتابات أخرى للفتيات والنساء وهي قليلة

(١) لمزيد من التفاصيل انظر بعض كتب التراث الإسلامي المبكر والوسيط: مثل: كتب الرحلات، والمعاجم اللغوية والجغرافية، وكتب الأدب والتاريخ العامة، وكتب تاريخ الحجاز المحلي وبخاصة تواريخ مكة المكرمة والطائف والمدينة المنورة .

(٢) المصادر نفسها . وللمزيد انظر: موسوعة المملكة العربية السعودية (منطقة الباحة) . (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٨هـ) المجلد رقم (١٦)، ص ٣٦٧ وما بعدها.

(٣) للمزيد انظر، موسوعة المملكة العربية السعودية (منطقة الباحة) مج ١٦، ص ٣٧٣، ٣٧٦. وتاريخ الهجرات العلمية من منطقة الباحة واليها خلال القرون الهجرية الماضية المتأخرة (١٢هـ/١٤هـ، ٢٠هـ/٢٠م)، موضوع هام وجليد بالدراسة ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة دكتوراه، حبذا أن نرى أحد الباحثين الجادين في أقسام التاريخ بالجامعات السعودية فيتخذ موضوعاً لأطروحتة، وهناك عدد من المخطوطات ومئات الوثائق غير المنشورة التي تصب في خدمته مثل هذا الموضوع العلمي .

(٤) للمزيد عن الأسر العلمية في منطقة الباحة منذ العصر الإسلامي الوسيط إلى القرن (١٤هـ/٢٠م)، انظر سعدي بن عيد الحريتي . الحركة التعليمية في سراة منطقة الباحة (جدة: المطابع الإسلامية الحديثة، ١٤٢١هـ)، ص ٢٢، علي بن صالح السلوك، غامد وزهران (السكان والمكان) . (جدة: شركة المدينة المنورة للطباعة، ١٤٢٢هـ)، ص ١٥٩، ١٩٩ . موسوعة المملكة العربية السعودية (منطقة الباحة) ، مج ١٦، ص ٣٧٥، ٣٧٦ .

(٥) انظر الحريتي، ص ٦١ / ٨٧، السلوك، غامد وزهران (السكان والمكان)، ص ١٥٠ .

ويشرف عليها غالباً بعض النساء المتعلّقات في المنطقة^(١).

أ. التعليم النظامي الحكومي العام :

بدأ في العصر الحديث والمعاصر تعليم البنين النظامي في المنطقة عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٤م)، عندما افتتحت أول مدرسة ابتدائية تحضيرية أميرية في بلدة الظفير^(٢)، وقام بالتدريس في هذه المدرسة عدد من الأساتذة الفضلاء الذين قدموا إليها من مدن الحجاز الكبرى مثل: الأستاذ شاكر بن علي، والأساتذة: عبد الحي كمال، وابن هليل، وعبد العزيز ابن رشيد، ومحمد بن سليم وغيرهم^(٣)، ثم افتتحت مدارس ابتدائية عديدة في أنحاء المنطقة الغامد والزهرانية.

وفي عام (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) افتتحت أول مدرسة متوسطة في بلدة بلجرشي، وفي عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧.٦٦م) افتتحت أول مدرسة ثانوية في بلجرشي أيضاً^(٤).

وكانت الإدارة الرئيسية للمدارس الأنفة الذكر تتبع في البداية لإدارة المدرسة الابتدائية التحضيرية في الظفير، بل كانت إدارة هذه المدرسة الأخيرة بمثابة حلقة الوصل بين مدارس المنطقة النظامية المبكرة وبين مديرية المعارف في مكة^(٥)، وفي عام (١٣٧٤هـ/١٩٥٤.٥٣م) أنشئت أول معتمدية للتعليم في الباحة، ثم تحولت إلى إدارة تعليم عام (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م)، ثم إدارة عامة للتعليم في المنطقة عام (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)^(٦). وفي عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م) افتتح ثلاثة مراكز إشراف تربوي في كل من محافظة بلجرشي ومحافظة المنندق، والعقيق بالإضافة إلى مركز الإشراف التربوي بمحافظة القرى^(٧).

(١) السلوك، غامد وزهران (السكان والمكان) ص ٨٧، موسوعة المملكة العربية السعودية (منطقة الباحة) مج ١٦، ص ٣٧٦.٣٧٧. وموضوع تاريخ الأسر العلمية والكتاتيب في منطقة الباحة من القرن (١٤١٢هـ/٢٠١٨م) يستحق الدراسة، حبذا أن نرى أحد الباحثين الجادين فيدرسه دراسة علمية أكاديمية ويوضح لنا الرموز العلمية التي عرفتها المنطقة وجهودهم في ذلك الزمن، وأسماء الكتاتيب، ونظامها وطرق التدريس فيها، والمواد التي تدرس، وعلاقة تلك الكتاتيب والأسر مع مجتمعاتها.

(٢) الظفير: أحد الأحياء الرئيسية في مدينة الباحة ويوجد به اليوم العديد من المؤسسات الإدارية الرئيسية الحكومية والأهلية. مشاهدات الباحث في (٢٢/١٢/١٤٣٣هـ).

(٣) من خلال اطلاعنا على بعض سجلات وزارة التربية والتعليم في عام (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، وما استطلعنا جمعه من وثائق ومذكرات عن منطقة الباحة، ومن خلال ما وصلنا من الأستاذ سعد المبيض في قوله المنشور في القسم الرابع من كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الجزء الخامس تحت اسم (القول الثالث) نضح لنا أسماء أعلام كثيرين عملوا في مهنة التربية والتعليم منذ عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٣-١٩٦٠م). ونأمل من المتعلمين الباحثين في بلاد الباحة أن يجمعوا تراجم أولئك الرواد الأوائل في تاريخ منطقة الباحة الحديث ومن يفعل ذلك فسوف يسدي للمنطقة وأهلها خيراً كثيراً.

(٤) للمزيد انظر، موسوعة تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية في مائة عام - (وزارة المعارف، ١٤١٩هـ)، ص ٥٦ وما بعدها.

(٥) هذا ما وجده الباحث في بعض الوثائق التاريخية المبكرة التي تعود إلى الخمسينيات أو الستينيات من القرن (١٤١٤هـ/٢٠م).

(٦) هذا ما سمعه الباحث من بعض الأساتذة التربويين في منطقة الباحة أثناء زيارتها في (٢٩/١١-٩/١٢/١٤٣٣هـ).

(٧) انظر: الكتيبات والمطويات والتقارير السنوية الخاصة بإدارة التربية والتعليم في الباحة.

أما الأجزاء التهامية من منطقة الباحة فتشير بعض الوثائق والمذكرات إلى تبعيتها إدارياً وتعليمياً إلى بلاد القنفذة التابعة لمنطقة مكة المكرمة . وكان بها مكتب للإشراف منذ عام (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)^(١)، وفي عام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) تحول هذا المكتب إلى إدارة تعليم، ومنذ عام (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) تحول اسم هذه الإدارة إلى إدارة التعليم بمحافظة المخوة، وأصبحت تابعة لمنطقة الباحة التعليمية^(٢). وكانت أول ابتدائية بالمخوة عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، وأول متوسطة عام (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، وأول ثانوية في عام (١٣٩٧هـ)^(٣).

أما تعليم البنات فقد وصل متأخراً، وذلك في عام (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) عندما افتتحت أول مدرستين ابتدائيتين في بلجرشي والظفير، وكان يشرف على تعليم المنطقة خمس مندوبيات، منها ثلاثة في السراة وتتبع إدارياً إدارة تعليم الطائف^(٤)، واثنان في تهامة، بالمخوة وقلوة، وترتبط بإدارة تعليم البنات في مكة المكرمة^(٥)، وفي عام (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) أنشئت أول إدارة تعليم مستقلة للبنات في الباحة وربطت بها جميع مندوبيات المنطقة^(٦).

وفي عام (١٤٢٩هـ/٢٠١٠م) جرى بعض القرارات العليا على التعليم في المملكة العربية السعودية، ومن ثم دمج إدارة التعليم للبنين وإدارة التعليم للبنات حيث أصبحت إدارة واحدة تشرف على التعليم (الذكور والإناث) في كل منطقة^(٧)، ونجد إدارة التربية والتعليم في الباحة تشرف على جميع مراحل التعليم في الأجزاء السروية والبيدوية^(٨)، وقد وصل عدد الطلاب والطالبات في عام (١٤٢٣.٢٢هـ) إلى (٢٣٦٠٠) طالبا و(٢٣٩١٠) طالبة.

(١) هذا ما عثر عليه الباحث أثناء جمع مادة كتابه الخاص بمنطقة القنفذة، والموسوم ب: بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق/١٥٠١هـ/٢٠١٦م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٢هـ/٢٠١١م).

(٢) انظر: موسوعة تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية في مائة عام، ص ٥٧.

(٣) تم الاطلاع على بعض التقارير والمذكرات والكتب السنوية الصادرة من إدارة التربية والتعليم في محافظة المخوة أثناء زيارتنا للمنطقة في (١١/٢٩-١٢/٩-١٤٢٣هـ).

(٤) وتلك المندوبيات هي (بلجرشي، والظفير، والنصباء).

(٥) تم الاطلاع على بعض المنشورات والتقارير الصادرة من إدارة التربية والتعليم . بمحافظة المخوة في (١٢/٢٢-١٤٢٣هـ).

(٦) تاريخ التعليم في منطقة الباحة منذ عام (١٣٥٢-١٤٠٠هـ/١٩٩٣-١٩٨٠م) موضوع علمي أكاديمي يستحق أن يكون عنوانا لرسالة دكتوراه، بهذا أن نرى أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أو أي جامعة سعودية أخرى فيتحده عنوانا لأطروحتة وهو جدير بالبحث والدراسة. كما أن في إدارات تعليم منطقة الباحة ووزارة التربية كما هائلًا من السجلات والوثائق الجديدة في مادتها العلمية والمفيدة لخدمة مثل هذا الموضوع.

(٧) للمزيد عن هذه الإجراءات الإدارية انظر سجلات ومنشورات وكتب عديدة أصدرتها وزارة التربية والتعليم في المملكة من عام (١٤٢٣.١٤٣٠هـ/٢٠١٢.٢٠١٠م)

(٨) وهناك بعض المسؤوليات لدى إدارة تعليم الباحة تجاه إدارة التعليم في المخوة . فإدارة تعليم الباحة عامة وتراجعها إدارة تعليم المخوة في بعض الجوانب الإدارية والمالية والتعليمية . للمزيد عن تاريخ التعليم في منطقة الباحة . انظر، موسوعة المملكة العربية السعودية (منطقة الباحة) . مج ١٦، ص ٤٧٦-٤٨١ .

أما عدد المدارس التابعة لإدارة تعليم المخوأة فهي (٣٥٢) مدرسة، (١٧٩) للبنات، و(١٧٣) للبنين، وعدد المدرسين (٢٥٤٦) معلماً و(٢٤٤٩) معلمة، ومجموع عدد الطلاب والطالبات حوالي (٢٨٠٠٠) طالباً وطالبة^(١).

ويتواجد في المنطقة عدد من المعاهد التي تمنح طلابها (دبلومات) في بعض العلوم مثل: المعاهد العلمية، وهي ثلاثة، الأول: في مدينة بلجرشي وكان افتتاحه عام ١٢٨٣هـ / ١٩٦٣م)، والثاني في الباحة عام (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م). والثالث في المنطق عام (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) وجل المناهج التي تدرس في هذه المعاهد تاريخية وعربية وشرعية^(٢)، وهي تابعة إدارياً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومن خلال الاطلاع على بعض الوثائق والسجلات الخاصة ببعض هذه المعاهد اتضح لنا أنه تخرج فيها طلاب نجباء مبدعون في علوم الشريعة واللغة العربية، فمنهم من أصبح قاضياً أو أستاذاً في الجامعة، وصار الكثير من طلاب هذه المعاهد أدباء وشعراء ووعاظ ودعاة ومحامين ومستشارين وغيرهم^(٣).

وهناك معاهد أخرى علمية وفنية مثل: المعاهد الصحية، وأول معهد افتتح في الباحة عام (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، ومن مهامه تخريج كوادر فنية في علوم التمريض، والصيدلة، والأشعة، والتخدير، والمختبر، والأسنان، والتغذية، والتفتيش الصحي، وقد تم تطويره إلى كلية علوم تطبيقية تابعة لجامعة الباحة^(٤). ومعاهد فنية مثل: مركز التدريب المهني الذي افتتح في مدينة الباحة عام (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، والمعهد الثانوي التجاري عام (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، والكلية التقنية في حاضرة الباحة عام (١٤١٩هـ / ١٩٨٨م)^(٥).

(١) مقابلات مع بعض موظفي إدارة تعليم محافظة المخوأة في الفترة الممتدة من (٢٩/١١-١٢/٩-١٤٣٣هـ). ومن المؤكد أن هناك كما هائلاً من المذكرات والوثائق والسجلات في إدارتي التعليم في منطقة الباحة (الباحة والمخوأة)، ولم أتمكن من الاطلاع عليها لأن قديمي إلى المنطقة كان في وقت إجازة عيد الأضحى عام (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م) ونستطيع القول أن الرصد التاريخي للتعليم في منطقة الباحة منذ عام (١٤٣٣-١٤٠٠هـ / ١٩٨٠-٢٠١٢م)، موضوع هام وسهل ونأمل أن نرى بعض الباحثين الجادين في جامعة الباحة فيتولوه بالبحث والدراسة والتحليل.

(٢) ومنذ تسعينيات القرن (١٤هـ / ٢٠م) تم إدخال مناهج ذات صبغة علمية بحتة في هذه المعاهد مثل: الرياضيات والإنجليزي، والفيزياء، والكيمياء وغيرها. وصارت تدرس جنباً إلى جنب مع المناهج الشرعية والعربية الرئيسية والأساسية.

(٣) دراسة تاريخ المعاهد العلمية في منطقة الباحة أو في أي منطقة من مناطق المملكة موضوعات هامة وجديرة بالدراسة والاهتمام، ومن يفعل ذلك فسوف يطلعنا على الأدوار العلمية والثقافية المهمة التي أدتها هذه المعاهد منذ نشأتها إلى اليوم. للمزيد انظر، موسوعة المملكة العربية السعودية (منطقة الباحة). ص ١٦، ص ٤٨٠.

(٤) انظر في صفحات قادمة تجد بعض التفاصيل عن التعليم العالي في المنطقة.

(٥) هذه الكلية تطوير للمعهد الثانوي الصناعي وتخصصاتها أقسام متقدمة في المجالات الفنية والصناعية، وتتبع إدارياً للمؤسسة العامة للتعليم التقني والمهني وعميد الكلية هو الذي يتولى الإشراف على مجلس التدريب التقني والمهني في كل منطقة، ودور هذا المجلس متابعة سير العملية التعليمية والإدارية والمالية والتخطيط لجميع المؤسسات الفنية والتقنية. هذا ما سمعه الباحث من بعض العاملين الرئيسيين في بعض المؤسسات الفنية والتقنية أثناء زيارة بلاد الباحة في (٢٩/١١-١٢/٩-١٤٣٣هـ).

والكلية والمعاهد التقنية تقوم على تدريس تخصصات فنية وتقنية مثل: الكهرباء، والنجارة، وميكانيكا السيارات، والتمديدات الصحية، والتبريد والتكييف، والتقنية الكهربائية، وتقنية الحاسب الآلي، والتقنية الإدارية، واللحام، والميكانيكا العامة وغيرها^(١).

ب. التعليم الحكومي العالي :

بدأ التعليم الجامعي للبنات في الباحة عام (١٤٠٣-١٤٠٤هـ / ٨٣-١٩٨٤م) عندما افتتحت أول كلية متوسطة بمدينة الباحة، ومدة الدراسة بها آنذاك سنتان، وفي عام (١٤١٢هـ / ١٩٩١م) تم تطوير تلك الكلية لتصبح كلية جامعية في مجال التربية وأصبح زمن الدراسة بها أربع سنوات، ونظراً لتزايد الطالبات على هذه الكلية تم فصلها في عام (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) إلى كليتين إحداهما للأقسام الأدبية والأخرى للأقسام العلمية، ثم افتتحت كليات مشابهة في بلدان أخرى من منطقة الباحة مثل مدن بلجرشي والمخوة والمندق وغيرها بهدف التيسير على طالبات المنطقة وتلبية احتياجات التعليم العام من الكوادر الوطنية المؤهلة^(٢)، وفي عام (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م) أنشئت الإدارة العامة لكليات البنات بمنطقة الباحة من أجل الإشراف الإداري والتعليمي والمالي على تلك الكليات، وكانت هذه الإدارة تابعة إدارياً ومالياً لوكالة الرئاسة العامة لتعليم البنات في الرياض^(٣).

أما التعليم الجامعي للبنين فقد بدأ بكلية المعلمين عام (١٤٠٩-١٤١٠هـ / ٨٨-١٩٨٩م)، وعدد أعضاء هيئة التدريس آنذاك (٩) أعضاء، أربعة سعوديين وخمسة متعاقدين، وعدد الطلاب (١٥٠) طالباً، وفي عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م) ارتفع عدد الطلاب إلى (١١٨٦) طالباً، وعدد الأساتذة (٨٥) عضو هيئة تدريس، (٤٩) متعاقداً، و (٣٦) سعودياً، وعدد المتبعثين لدرجتي الماجستير والدكتوراه (٣١) طالباً، (٢٤) للماجستير و (٧) للدكتوراه^(٤).

واستمر التعليم العالي في منطقة الباحة محدوداً حتى أنشئت جامعة الباحة عام (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م)، وخصص لها أرض مساحتها حوالي ثلاثة ملايين متر مربع

(١) جميع هذه التخصصات مهمة وضرورية في حياة الناس اليومية، ويخرج فيها مئات الطلاب لكنهم لا يذهبون للعمل في مجال العلوم التي درسوها . ونرى اليوم معظم العاملين في هذه المهن الفنية التقنية من العمال الوافدين من خارج البلاد، مع أن أرباحها جيدة وعالية . هذا ما شاهده الباحث في المدن الصناعية بجنوبي البلاد السعودية، وفي بعض المدن الكبرى بالملكة العربية السعودية .

(٢) تاريخ التعليم العالي للبنات في منطقة الباحة موضوع يستحق البحث والدراسة . حيداً أن نرى إحدى طالباتنا في قسم التاريخ، بجامعة الملك خالد فتتخذ موضوعاً لأطروحتها لدرجة الماجستير، وهناك الكثير من الوثائق والسجلات الجديدة تصب في خدمة هذا الموضوع .

(٣) هذا ما عرفته من بعض المسؤولين في تعليم البنات في منطقة الباحة أثناء زيارتي للمنطقة عام (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) بل حصلت آنذاك على بعض المذكرات والوثائق المتعلقة بالتعليم العالي للبنات في بلاد الباحة .

(٤) المصدر: مذكرة وصلتنا من عميد كلية المعلمين في الباحة في عام (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) . وأصل وصورة هذه المذكرة ضمن أوراق مكتبة الباحث (ابن جريس) .

في منطقة العقيق، والعمل جار الآن في استكمال مشاريعها العمرانية، وقد أنجز أغلبها، وأصبح يعمل في الموقع الجديد معظم الكليات، وبعض الإدارات الرئيسية^(١). وعند زيارتي أرض الجامعة في (١٢/٢/١٤٣٣هـ) اتضح لي أنها تضم خمس عشرة كلية هي: (١) كلية الطب التي تم إنشاؤها عام (١٤٢٩هـ)، وبدأت الدراسة بها في (١٤٣١.٣٠هـ). (٢) كلية العلوم الطبية التطبيقية في عام (١٤٢٦هـ). (٣) كلية الهندسة عام (١٤٢٧.٢٦هـ). (٤) كلية العلوم عام (١٤٢٦هـ). (٥) كلية العلوم الإدارية والمالية عام (١٤٢٩هـ). (٦) كلية التربية، وهي امتداد لكلية المعلمين بالباحة، وفي (١٤٢٧/٥/٣هـ) صدر قرار بإلحاق كليات المعلمين وكليات البنات وكلية المجتمع بجامعة الباحة، وصدرت الموافقة السامية على قرار مجلس التعليم العالي بتاريخ (١٤٢٩/٤/٢٩هـ) على إعادة هيكلة هذه الكليات من أجل إلحاقها بمنظومة التعليم الجامعي. (٧) كلية العلوم والآداب الإنسانية في عام (١٤٣٠هـ). (٨، ٩، ١٠) ثلاث كليات للعلوم والآداب ببلجرشي، والمخوة، والمندق عام (١٤٢٩هـ) (١١) كلية المجتمع بالباحة عام (١٤٢٢هـ)، (١٢) كلية الدراسات التطبيقية والتعليم المستمر عام (١٤٣١هـ)، (١٣) كلية الصيدلة الإكلينيكية عام (١٤٣٢هـ)، (١٤) كلية علوم الحاسب وتقنية المعلومات عام (١٤٣٢هـ)، (١٥) كلية العلوم الإدارية بقلوة عام (١٤٣٣هـ)^(٢).

ويوجد بهذه الكليات الأنفة الذكر عشرات الأقسام في شتى العلوم والمعارف ويعمل بها حوالي (١٠٠٩) عضو هيئة تدريسي من وظيفة معيد إلى درجة أستاذ. كما يدرس بالجامعة حوالي (١٩٧٥٦) طالب وطالبة منتظمون ومنتسبون، ناهيك عن مشاريعها التنموية في منشأتها العمرانية ونشاطاتها العلمية والفكرية والثقافية والأدبية^(٣).

(١) لقد زرت منطقة الباحة عام (٢٩-١٤٢٠هـ/٢٠٠٩-٢٠١٠م) فوجدت الإدارة الرئيسية للجامعة وجميع الكليات لازالت داخل مدينة الباحة، ثم زرتها في الفترة من (١١/٢٩-١٢/١٤٣٣هـ) فوجدت معظم كليات وإدارات الجامعة، طلاباً وأساتذة وموظفين، يعملون في الموقع الجديد بمنطقة العقيق، ولزال هناك كليات وأقسام وإدارات قليلة في أماكنها القديمة بحاضرة الباحة. وسوف تنتقل إلى أماكنها الجديدة في موقع الجامعة الجديد قريباً. هذا ما سمعه الباحث من بعض المسؤولين في جامعة الباحة في الفترة من (١١/٢٩-١٢/١٤٣٣هـ).

(٢) حصل الباحث على هذه المعلومات من المنشورات والتقارير السنوية لجامعة الباحة، وقد زودني بها مشكوراً الدكتور علي الزندي، عميد شؤون القبول والتسجيل بالجامعة في (١٢/٣/١٤٣٣هـ).

(٣) تحتاج جامعة الباحة إلى رصد تاريخي علمي موثق يشمل بداية نشأتها وتطورها، وعلاقتها بالمجتمع، وما يقابلها من سلبيات، وما أنجزت من أعمال وما يجب عليها من أجل خدمة الأرض والسكان، ونأمل أن يتولى أحد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة هذه المهمة، وإن فعل أحد ذلك فسوف يقدم خدمة جليلة للجامعة وللمجتمع ولكل من يرغب تفصيلات علمية عن هذه الجامعة الوليدة.

وكوني أحد أبناء المنطقة الجنوبية وأعرف منطقة الباحة أرضاً وسكاناً، فإنني قد خرجت ببعض الانطباعات في باب التعليم والفكر والثقافة وما قدمته الجامعة، وما يجب أن تقدم في هذا الباب، ومن تلك الرؤى والانطباعات ما يلي:

١. تأسيس جامعة في المنطقة قرار صائب، فقد سهل على أبناء وبنات المنطقة العناء، فبقوا في أوطانهم، ونمت وتطورت بلادهم اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. وتحولت المنطقة من طاردة لسكانها إلى مستقطبة مستقبلية لهم، ويجب من القائمين على الجامعة أن يدركوا هذا الجانب الحضاري التنموي فيعملوا بجد وإخلاص على تذليل الصعاب وتوفير الإمكانيات العلمية والإدارية والتنموية لتحقيق كل ما يصب في الارتقاء بهذا الجانب^(١).

٢. للجامعة دور كبير ومؤثر في الرقي بالمستوى العلمي والفكري، والثقافي، والأدبي، والحضاري، ويجب على صناع القرار في الجامعة أن يدركوا أهمية هذا الجانب. فالمنطقة بكر في ميدانها العلمي وفي شتى المجالات، كما أنها تحتضن الكثير من الكفاءات والقدرات الثقافية والإبداعية، ومن ثم فيجب عليها أن تتصل بالمجتمع وتشركه وتستشير به في صنع بعض قراراتها وبخاصة فيما يتعلق بأحوال الناس العلمية والثقافية والحضارية.

٣. يجب على الجامعة أن تستقطب دائماً الكفاءات والطاقات البشرية الجيدة الفعالة المنتجة، كما يجب عليها أن تقارب وتزواج ثقافياً وعلمياً بين أعضائها الأكاديميين والمبدعين ومؤسسات المجتمع المدني، وإن فعلت ذلك فقد تجني ثماراً يانعة صالحة على المدى القريب والبعيد.

٤. لقد زرت منطقة الباحة من عام (١٤٢٤-١٤٣٣هـ/٢٠٠٤-٢٠١٢م) عدة مرات، وفي كل زيارة أزور بعض الكليات ومؤسسات الجامعة العلمية والإدارية، وأتقي ببعض فئات المجتمع من أقصى البلاد إلى أدناها، كما سمعت أقوال بعض الوجهاء والأعيان والمثقفين والموظفين والعامّة، ومن ثم لمست حراكاً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً تعيشه المنطقة والسبب الرئيس في ذلك هو تأسيس جامعة علمية ثقافية أكاديمية في هذه الناحية الجغرافية الهامة^(٢).

(١) والوضع نفسه وجدته في مناطق عسير وجازان ونجران والطائف، ونأمل أن نرى جامعات أخرى جديدة في أماكن التجمعات السكانية الكبيرة مثل: بلاد القنفذة، ومحائل، وشرورة، وبيشة وغيرها.

(٢) حبذا أن نرى دراسة علمية موثقة تصور الحراك الحضاري الذي تعيشه منطقة الباحة قبيل وبعد افتتاح جامعة الباحة إلى وقتنا الحاضر، ونأمل من مراكز الجامعة البحثية أن تتولى مثل هذا الموضوع بالبحث والدراسة، كما نأمل من الجامعة أيضاً أن تنشئ مراكز بحثية متخصصة تقوم على دراسة ما تتميز به منطقة الباحة، أو بعض الظواهر الطبيعية أو السكانية أو الاجتماعية أو الاقتصادية في البلاد الزهرانية والغامدية (بادية وسراة ونهامة).

ج. التعليم الأهلي العام والعالي :

قبل التعليم النظامي كان هناك بعض الفقهاء ورجال العلم الذين يقومون على تعليم الناس أمور دينهم ويؤمنونهم في صلواتهم، ويقضون بينهم في خصوماتهم وتقسيم مواريتهم، وعقود أنكحتهم^(١)، ثم جاء التعليم الحكومي وتطور، كما ذكرنا سابقاً، كما شهدت المنطقة خلال النصف الثاني من القرن (١٤/١٠٠م) بعض المدارس الأهلية التي قام على تأسيسها بعض الوجهاء والمشايخ والعلماء والدعاة، وبالتالي أسهمت بدور رائد في الحركة العلمية والثقافية، واستفاد منها طلاب عديدون في العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ومن تلك المدارس :

١- المدرسة السلفية بلجرشي :

أنشئت هذه المدرسة عام (١٢٧٠هـ/١٩٥١م) على يد مؤسسها الشيخ محمد بن علي بن جماح الغامدي^(٢)، فكان صاحب فكرتها وتأسيسها ومن ثم بقي مديراً لها وقائماً على شؤونها عدة عقود، وقد دون عنها كتاباً يقع في (٢٧٠) صفحة من القطع المتوسط سماه: **رحلتي مع الإيمان والمدرسة السلفية والدعوة والقرآن من جبال السروات لجميع الإخوة والأخوات (مواظب وعبر)**^(٣)، شرح في هذا الكتاب بداية حياته، ثم رحلاته في طلب العلم، وأخيراً رجوعه إلى موطنه من أجل تأسيس مدرسته (المدرسة السلفية)، مع ذكر الرواد الأوائل الذين ساندوه أثناء البناء والتأسيس حتى وجد الدعم والمؤازرة من ملوك آل سعود (عبد العزيز وأبنائه: سعود، وفيصل، وخالد، وفهد، وعبد الله، وسلطان وغيرهم)^(٤)، وفي الكتاب تفصيلات عن تحديد مكان المدرسة في بلدة بلجرشي، ثم جمع التبرعات من بعض المحسنين لبنائها، وتوافد الطلاب للانضمام إليها، ثم دعمها مالياً ومعنوياً من الملك سعود أثناء زيارة منطقة الباحة عام (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)،

(١) تاريخ تعليم المساجد والكتاتيب والأسر العلمية في منطقة الباحة قبل خمسينيات القرن (١٤/١٠٠م) موضوع جديد وجدير بالبحث والدراسة ويستحق إلى أن يكون عنواناً لأطروحة ماجستير أو دكتوراه في أحد أقسام التاريخ بإحدى الجامعات السعودية.

(٢) محمد بن جماح : أحد رجالات حاضرة بلجرشي، رحل في طلب العلم داخل وخارج المملكة العربية السعودية، ومن الدعاة الفضلاء الذين لهم جهود تذكر فتشكر عاش معظم حياته في خدمة الدين والعلم والدعوة في منطقة الباحة (بلجرشي)، ويستحق أن يصدر عنه كتاب علمي موثق، أو يخصص له رسالة دكتوراه في أحد الأقسام الأكاديمية بإحدى جامعاتنا السعودية، ونأمل من أبنائه وأحفاده أن يسعوا إلى جمع وثائقه ومراسلاته ومدوناته وكتبه وتوفيرها لباحث نزيه يقوم برصد مآثره وجهوده في ميادين الدعوة والإصلاح والتعليم فهو جدير إلى أن يكتب عنه كتب وبحوث علمية عديدة .

(٣) كتاب مجلد طبعة : المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

(٤) المصدر نفسه، ص ٢ وما بعدها .

ثم دعم الملك فيصل لها أيضاً^(١)، وكانت علوم الشريعة والعربية جل المواد التي تُدرس فيها، وفي عام (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) طبقت فيها مناهج وزارة المعارف، ثم افتتحت فيها المرحلة الثانوية بقسميها (العلمي والأدبي)،^(٢) وبقي الشيخ ابن جماح وبعض أقربائه وطلابه قائلين على سير هذه المدرسة أكثر من أربعين عاماً، كما قابل العديد من العقبات أثناء رعايته وإشرافه على هذه المؤسسة الأهلية المباركة. وفي أوائل القرن (١٥هـ/٢٠م) أسندت السلفية الأهلية إلى مديرين تعينهم وزارة المعارف، وقد تم تحويل اسم مرحلتها المتوسطة والثانوية إلى مسمى (مدرسة بدر) وبقيت المرحلة الابتدائية باسم: المدرسة السلفية الابتدائية^(٣).

وعند الاطلاع على لفييف من المذكرات والوثائق والأوراق التي تم جمعها عن هذه المدرسة من عام (١٤٢٤-١٤٣٣هـ / ٢٠٠٤-٢٠١٢م) اتضح لنا نقاط عديدة نذكر أهمها في السطور التالية :

أ. هذه المدرسة نشرت الوعي الثقافى والمعرفى والدينى بين سكان منطقة الباحة، فتخرج فيها طلاب ترقوا في درجات المعرفة حتى صار منهم المعلمون والقضاة والدعاة وغيرهم .

ب. جهود فردية من الشيخ ابن جماح جعلت أهل الخير والصالحين ينضمون إليه فيؤازرونه بالمال والفكر والجسد، بل وقفوا معه في كثير من العقبات والمحن التي واجهها أثناء الرعاية والإشراف على هذه المؤسسة التعليمية الخيرية . وقد عثرنا على عشرات الوثائق والرسائل التي أرسلت إلى الشيخ صاحب المدرسة وهي صادرة من علماء ومشايخ ودعاة ووجهاء وشيوخ قبائل ومدراء وموظفين في الدولة داخل منطقة الباحة وخارجها، وجميعهم يتنون على جهود الشيخ وعلى جهود مدرسته المباركة في ميادين الدعوة والثقافة والتعليم^(٤).

ج. حسب ما علمت من بعض أعيان ووجهاء بلجرشي أثناء تجوالي في بلادهم في (١-٢/١٢/١٤٣٣هـ)، أن موقع المدرسة السلفية القديم أصبح مهجوراً، ونرجو

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠-٩١، ١١٠-١١١ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢ وما بعدها . هناك بعض الأعلام والرموز الذين درَّسوا وساهموا في بناء هذه المدرسة، وكل واحد منهم يستحق بحثاً مستقلاً أو ترجمة مطولة، ونأمل أن نرى أحد أبناء غامد وزهران المثقفين فيتولى هذا الموضوع بالبحث والتدوين . ومن يفعل ذلك فسوف يطلعنا على صور ثقافية وعلمية لأولئك الرعيل النقي الوفي .

(٣) تم فصل المرحلة الابتدائية عن المرحلتين المتوسطة والثانوية في عام (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ثم تغير اسم المدرسة السلفية الابتدائية إلى بدر أيضاً في عام (١٤٢١-١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

(٤) حبذا أن تجمع هذه الرسائل المتبادلة مع الشيخ، وقد يكون معظمها عند أبنائه وطلابه وأقاربه وأحفاده ومريديه ومحبيه ثم تدرس دراسة علمية تاريخية ثقافية لغوية أكاديمية، وهذا أقل واجب على أهالي منطقة الباحة وبخاصة سكان محافظة بلجرشي.

من أبناء الشيخ ابن جماح وطلابه ومحبيه أن يسعوا إلى صيانة وترميم هذا المعلم التاريخي الحضاري، ثم جعله مكتبة عامة يستفيد منها الناس، وتذكير أجيال اليوم والمستقبل بما بذله الشيخ ورفاقه وطلابه من جهود مباركة في نشر العلم والفضيلة والقول الحسن.

د . كون المدرسة السلفية بقيت تحت إشراف الشيخ وطلابه وزملائه لعقود عديدة، فلا بد أن يكون هناك كم هائل من المذكرات والوثائق التاريخية والحضارية الخاصة بالجهود المبذولة من وإلى هذه المؤسسة التعليمية، ونأمل أن يجمع هذا التراث الثقافي الذي يصور حقبة من الزمان كان الجهل والفقر والجوع هي الآفات المدمرة والخائفة لإنسان ذلك العصر.

٢- المدرسة الريحانية ببني ظبيان :

هذه المدرسة نسبة إلى قرية الريحان ببني ظبيان في سراة غامد، ومؤسسها الأستاذ سعد ابن عبد الله المليص، صاحب القول الثالث في القسم الرابع من كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب الجزء الخامس^(١)، وكان إنشاؤها في عام (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)^(٢)، ومرآحل الدراسة بها المتوسطة والثانوية على منهج نظام دار التوحيد بالطائف، وقد تفرع عن هذه المدرسة فرعان، أحدهما بمدينة الباحة، والآخر بمدينة بلجرشي، وكانت الدراسة بالمجان على نفقة مؤسسها وأهل بيته وقرابته بالإضافة إلى بعض التبرعات والمعونات اليسيرة من وزارة المعارف وبعض الجهات الحكومية والأهلية الأخرى. وقد توقفت الدراسة بهذه المدارس عام (١٤١٠-١٤١١هـ / ١٩٨٩-١٩٩٠م)^(٣)، تخرج فيها عدد كبير من الطلاب، ومنهم من ترقى في سلم الوظيفة والتعليم حتى وصل إلى مناصب عالية في الدولة^(٤).

(١) انظر تفصيلات أكثر عن الأستاذ المليص وعن تعليم البنين في منطقة الباحة خلال العقود الماضية المتأخرة، في هذا الكتاب، وفي القسم الرابع تحديداً .

(٢) للمزيد انظر: سعد عبد الله المليص . " تاريخ التعليم النظامي للبنين بمنطقة الباحة " مجلة المنتدى، نادي الباحة الأدبي، عدد (٧) (الباحة، ١٤٢٥هـ)، ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) مقابلات مع الشيخ سعد المليص مرات عديدة من (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م)، ولازال الشيخ حتى تدوين هذه السطور يؤدي رسالته العلمية والثقافية والحضارية، ونسأل الله له الصحة والثبات والتوفيق . كما أن الشيخ سعد المليص يستحق أن تكون حياته عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراه في أحد أقسام التاريخ بجامعةنا السعودية، ونأمل من طلابه وأحبابه وأبنائه أن يسعوا إلى جمع أوراقه ووثائقه ومذكراتها ودفعها إلى باحث نزيه يدرسها ويخرجها في كتاب علمي أكاديمي موثق .

(٤) المدرسة الريحانية استمرت تؤدي رسالة علمية سامية عقوداً عديدة، والواجب على مثقفي منطقة الباحة وبخاصة ممن استفاد من هذه المدرسة أن يقوموا على صيانة مكانها وترميمه ليكون متحفاً أو مكتبة عامة يستفيد منها أجيال اليوم، كما يجب أن يجمع في هذا المكان جميع ما يتعلق بالمدرسة من سجلات ووثائق ومذكرات وأدوات أثرية، وهذا في نظري أقل واجب يجب عمله تجاه هذه المدرسة، والمدرسة نفسها تستحق أن يفرد لها رسالة أو كتاب علمي يرصد فيه الجهود التاريخية التي حققتها هذه المؤسسات الأهلية على مدار ثلاثة عقود .

٣. مدارس القرعاوي، ومدرسة زهران السلفية؛

الشيخ عبد الله القرعاوي أحد رجالات عنيزة في القصيم، ولد بها عام (١٣١٥هـ/١٨٩٧م) وتعلم بها في بداية حياته ثم سافر إلى بلدان عديدة داخل المملكة العربية السعودية وخارجها من أجل طلب العلم^(١)، وفي بداية النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) قرر الخروج إلى جنوبي البلاد السعودية من أجل الدعوة ونشر العلم والثقافة. وفي عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) وصل منطقة جازان واستوطن ببلدة صامطة وفتح بها عدداً من المدارس وزودها بجميع مستلزمات الطلبة^(٢)، ثم وسع نشاطاته التعليمية وانتشرت مدارسه في تهامة والسراة حتى وصلت مناطق القنفذة والباحة وعسير ونجران^(٣).

وكان للشيخ القرعاوي جهود في نشر مدارسه في بعض قرى غامد وزهران، وهناك بعض الأعلام الزهرانية والغامدية التي تعاونت معه وعملوا في مدارسه^(٤)، وقد اطلعت على بعض الوثائق في منطقة الباحة وفيها ذكر لبعض المدرسين الذين درّسوا في مدارسه بسرورات المنطقة، وأسماء بعض الطلاب الذين تعلموا في تلك المدارس، كما وقفنا على بعض القرى والبيوت التي عملت فيها بعض مدارس هذا الشيخ المحتسب (رحمه الله)^(٥).

أما مدرسة زهران السلفية فمؤسسها الشيخ عبد الله بن مسفر الزهراني في بلدة جافان بسراة زهران^(٦)، وفي عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) سميت بالمدرسة السلفية على غرار المدرسة السلفية ببلجرشي، ومناهجها الرئيسية اللغة العربية وعلوم الشريعة، ولم

(١) للمزيد عن الشيخ القرعاوي انظر موسى بن حاسر السهلي . الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي ودعوته في جنوبي المملكة العربية السعودية (معلومات النشر غير مذكورة، ١٣١٢هـ)، ص ١٠ وما بعدها، غيثان بن جريس . تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤هـ/١٩٣٤م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ج١، ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) انظر أحمد بن إبراهيم السلوم . تاريخ الحركة التعليمية في المملكة العربية السعودية . (أمريكا : واشنطن، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ج٢، ص ٦٤٧ . ابن جريس، تاريخ التعليم في منطقة عسير، ج١، ص ٢٦٠ .

(٣) وعندما عجز الشيخ من متابعة مدارسه ضمت جميعها إلى وزارة المعارف والكليات والمعاهد العلمية الدينية، وجهود القرعاوي العلمية والتعليمية والثقافية في جنوب المملكة لازالت بحاجة إلى بحوث علمية أكاديمية موثقة، والجامعات المحلية في هذه البلدان الجنوبية عليها مسؤوليات كبيرة فتعمل على جمع تراث أعلام هذه الأوطان ومن كان له جهود تذكر فتشكر مثل الشيخ عبد الله القرعاوي وغيره (رحمهم الله جميعاً) . كما يوجد عند الباحث بعض المذكرات المدونة من الأستاذين القديرين محمد أحمد أنور وسعد بن عبد الله المليص وفيها ذكر لجهود الشيخ القرعاوي في منطقتي عسير والباحة .

(٤) هذا ما سمعه الباحث من بعض رجالات غامد أثناء جمع مادة هذه الرحلة في (٢٩/١١/١٤٢٣هـ) .

(٥) من خلال تجوالنا في مناطق عديدة من جنوبي البلاد السعودية وسؤلنا عن جهود الشيخ القرعاوي، وجدنا ذكره في كل مكان، بل قابلنا أفراداً عديدين في القنفذة وعسير ونجران والباحة وجميعهم شاهدوا الشيخ والتقوا به وأغلبهم درسوا في مدارسه المتواضعة في الإمكانيات والإعداد والترتيب، إلا أنها مع بساطتها كانت منتشرة في جميع البلدات والقرى والأرياف والوادي بالمناطق السعودية الجنوبية .

(٦) من مواليد عام (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م)، تنقل في طلب العلم بين اليمن والحجاز، وعاصر عدداً من علماء وأعلام منطقة غامد وزهران، درس على يديه كثير من الطلاب . للمزيد انظر: سعدي بن عيد الحريتي، ص ٥٦، علي السلوك، غامد وزهران، السكان والمكان، ص ١٩٦ .

تستمر طويلاً وإنما تحولت إلى مدرسة حكومية، وقد تخرج فيها عدد من الطلاب الذين عملوا في مجال الدعوة والتعليم بالمنطقة^(١).

٤- مدرستا زهرة بنت سعيد الأعمى بلجرشي :

لم يكن إنشاء المدارس الأهلية مقصوداً على الرجال، وإنما كان للنساء دور رائد في ذلك، وتذكر بعض الروايات إلى أن الأستاذة زهرة بنت سعيد الأعمى من قرية المكارمة بلجرشي أنشأت مدرستين في عام (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م)^(٢)، واحدة للبنين وأخرى للبنات، وقد ضمت مدرسة البنين إلى المدرسة السلفية للذكور في بلجرشي عام (١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م)، أما مدرسة البنات فقد استمرت تحت مسمى : المدرسة السلفية للبنات بالمكارمة، وكانت تحت إشراف المدرسة السلفية الرئيسية للرجال في بلجرشي، وعند وفاة المعلمة زهرة قامت الأستاذة عزة بنت عبد الرحمن نسيلة بالإشراف على المدرسة حتى ضمت إلى مدارس التعليم النظامي للبنات في المنطقة في أوائل التسعينيات^(٣).

٥- مدارس وكليات التعليم الأهلي الحديث :

من خلال تجاونا في المنطقة اتضح لنا أن جميع مدارس التعليم العام فيها حكومية، وهناك عدد محدود جداً من المدارس الأهلية في المنطقة وهي خاصة لبعض المستثمرين من أهل البلاد الزهرانية والغامدية^(٤)، أما التعليم العالي فقد افتتحت كلية الباحة الأهلية العالمية للعلوم عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٢٠م)، وهي كلية متخصصة في الجانب العلمي، وقد أنشئت لتكون نواة لجامعة أهلية تضم العديد من الكليات العلمية في الطب والهندسة

(١) المرجعان نفسهما .

(٢) حبذا أن نرى أحد طلاب العلم الجادين فيجمع كل ما يتعلق بالتعليم النسائي في بلاد غامد وزهران خلال القرنين (١٤١٣هـ / ٢٠١٩م) ويخرج عن ذلك بحث أو دراسات علمية أكاديمية في هذا الباب الهام والجدير بالاهتمام .

(٣) هذا ما سمعه الباحث من بعض الرواة في محافظة بلجرشي في الفترة التي زار فيها المنطقة من (١١/٢٩-١٢/٩/١٤٢٣). وما تم الإشارة إليه في ميدان التعليم الأهلي في المنطقة، ليس الإشذرات يسيرة من جهود كثير من المحسبين والمحتسبات خلال القرنين (١٤١٣هـ / ٢٠١٩م)، بل إن هناك رواداً في مجال هذا الصنف من هذا التعليم، ولأزالت جهودهم مغمورة، وأثارهم الإيجابية غير مدونة . ونأمل أن نرى أحد طلاب البحث العلمي في منطقة الباحة، أو أحد طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بجامعةنا السعودية فيتولى هذا الموضوع بالبحث والدراسة العلمية الأكاديمية . وهو موضوع جدير أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية أكاديمية .

(٤) من تلك المدارس الأهلية : مدارس جيل المستقبل، ومدارس الباحة وغيرها، والفرق بين التعليم الأهلي قديماً وحديثاً أن مؤسسي التعليم الأهلي في القرون الماضية المتأخرة كانوا يقومون على إنشاء الكتاتيب والمدارس من باب الاحتساب ونفع الناس ونشر الوعي والفكر والثقافة، ناهيك عن أنهم كانوا قدوة حسنة في أنفسهم ولكل من يتصل بهم، أما التعليم الأهلي اليوم فأصحابه يسعون إلى العمل التجاري الربحي من خلال فتحهم مدارس ومؤسسات تعليمية، وقد زرت العديد من المدارس الأهلية في المنطقة الجنوبية، (عسير، ونجران، وجازان، والقنفذة، والباحة) ودرست عن بعض الكتاتيب والمحتسبين القدماء في هذه البلاد فوجدت الفرق شاسعاً بين الفريقين، فالأوائل كانوا أفضل وأرقى في أهدافهم ومبادئهم وبحثهم عن الأجر والاحتساب من الله عز وجل.

والتقنية والإدارة، واعتمدت اللغة الإنجليزية كلغة رئيسية للتدريس، وتقدم برامجها للبنات والبنين، وتضم العديد من الأجهزة والمعامل والمختبرات العلمية المتخصصة^(١).

٢. الفكر والثقافة :

إذا درسنا فكر سكان منطقة الباحة نجدهم أصحاب فكر سليم في معتقداتهم وتوجهاتهم العلمية والثقافية، والباحث عن تاريخ هذه البلاد خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة والحديثة والمعاصرة يجدهم من أوائل من دخل حوزة الإسلام، ومنهم علماء وفقهاء ورجال فكر وثقافة كثيرون ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية داخل الجزيرة العربية وخارجها^(٢)، وكان المذهب الشافعي هو السائد في بلادهم منذ القرون الإسلامية الأولى حتى القرن (١٣هـ / ١٩م)، ثم بدأ المذهب الحنبلي ينتشر حتى صار الأكثر أتباعاً في المنطقة حتى يومنا الحاضر^(٣).

والمأمل لتاريخ منطقة الباحة الحديث والمعاصر يجده خالياً من التيارات والأفكار العقديّة والسياسية المنحرفة، وربما وجد بعض الأفراد أو الأشخاص المحدودين والمدافعين أو المقتنعين بأراء وفتاوى أو توجهات ثقافية وعلمية وفكرية سلبية، لكن وضع مثل هؤلاء لم يصل إلى نسبة الظاهرة أو الرأي العام^(٤).

(١) زار الباحث الكلية في عام (١٤٢٠هـ، و١٤٢٣هـ/٢٠١٠، ٢٠١٢م) وهي لازالت على وضعها عند التأسيس مكونة من كلية واحدة تضم العديد من التخصصات، وربما تتطور إلى جامعة أهلية في المستقبل، إلا أن إنشاء جامعة الباحة الحكومية سد حاجة أبناء المنطقة في كثير من العلوم والتخصصات الأكاديمية.

(٢) كتب التراث الإسلامي مليئة بالأقوال والروايات والنصوص والأشعار التي تؤكد على إسهامات الغامدين والزهرانيين الحضارية على مر القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة وأوائل الحديثة. وهذا الموضوع يستحق أن يصدر عنه كتب ورسائل وبحوث عديدة، ونأمل من الباحثين والمؤرخين الأكاديميين المنصفين أن يدرسوا جهود سكان هذه البلاد، بل نأمل من أبناء منطقة الباحة أن يظهر منهم من يهتم بهذا الجانب العلمي الهام.

(٣) كان المذهب الشافعي هو السائد في عموم الجزيرة العربية، والمذاهب الثلاثة الأخرى (المالكي، والحنبلي، والحنفي) كانت هي أيضاً متواجدة لكن بنسب أقل، أما المذهب الزيدي والمذهب الإسماعيلي فكان لهما وجود في اليمن، ومنذ ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد وقيام الدولة السعودية الأولى صار المذهب الحنبلي ينتشر في كل المناطق التي سيطرت عليها الدولتان السعوديتان الأولى والثانية وجميع سكان المملكة العربية السعودية اليوم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهو المذهب الذي تتبعه الحكومة السعودية الحديثة. ودراسة الحياة العلمية والثقافية والفكرية والأدبية في جنوب الجزيرة العربية خلال العصور الإسلامية المختلفة، منذ فجر الإسلام حتى يومنا الحاضر مهم وجدير بالدراسة والتدوين، ويستحق أن يصدر عنه العديد من الدراسات والبحوث والكتب العلمية. ونأمل من جامعات اليمن وجنوبي البلاد السعودية أن تهتم بهذا الجانب العلمي الجدير بالاهتمام.

(٤) الناظر في الأحداث السياسية التي حدثت في العالم العربي والإسلامي خلال الأربعين سنة الماضية يلحظ أنه خرج العديد من المجاهدين المتحمسين الذين شاركوا في أفغانستان والبوسنة والصومال والعراق والشيشان وغيرها، بل ظهر هناك بعض الإرهابيين التكفيريين والمفجرين وغيرهم، وسمعنا وشاهدنا دعوات وفتاوى أخرى منحرفة، وكل هذه الإرهاصات الفكرية وصل شرها إلى المجتمع السعودي وانخرط فيها الكثير من شباب البلاد، وعانت ولا زالت تعاني الدولة والمجتمع من هذه الأفكار والتوجهات الهدامة، وجنوبي البلاد السعودية (الباحة، وعسير، وجازان، ونجران، والقنفذة) نالها بعضاً من هذه الشرور والمعتقدات الخاطئة، وإذا فحصنا مجتمع منطقة الباحة، وفتشنا في وثائقه وأراشيفه وجدناه من أقل المجتمعات السعودية التي شارك بعض أفرادها في مثل هذه الانتكاسات والمعتقدات والأفكار المعوجة والخطئة. ودراسة الأفكار الهدامة التي عاصرها المجتمع السعودي منذ

أما الحياة الثقافية التي عاشتها منطقة الباحة ولا زالت تعيشها إلى اليوم فقد مرت بمراحل عديدة هي :

أ- مرحلة ما قبل التعليم النظامي :

حياة الناس الثقافية كانت بسيطة ومتواضعة، فلا مدارس ولا مؤسسات ولا مراكز علمية وثقافية، وإنما الناس يتبادلون ثقافتهم في أسواقهم الأسبوعية، أو يحصلون على بعض الأخبار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية من بعض المسافرين من أبناء المنطقة إلى خارجها، وعند عودتهم يروون ما شاهدوه في البلدان التي زاروها سواءً كانت داخل الجزيرة العربية أو خارجها، وكان للأسر والقرى والحواضر مجالس سمر محدودة وخاصة يتبادلون فيها الأخبار أو ما سمعه بعضهم من قصص أو أمثال أو حكم أو أشعار بالفصحى والعامية، وفي صلوات الجمع والجماعات خطب ودروس ومواظ يتلوها بعض الفقهاء أو العارفين ببعض العلوم الشرعية والعربية، ونجد بعض الشعراء الشعبيين أو الحفاظ أو الرواة الذين يلقون بعض القصائد أو الأهازيج أو الأناشيد أو الحكم أو القصص الشعبية في بعض المناسبات الاجتماعية مثل: الأعياد، والزواج، والختان، واستقبال المسافرين أو توديعهم، وللمزارعين، والرعاة، والتجار، والحرفيين، والحجاج وغيرهم لهم أيضاً نشاطات معرفية وثقافية يمارسونها أثناء ممارسة أعمالهم الاجتماعية والاقتصادية والحضارية^(١).

ب- مرحلة ما بعد التعليم النظامي :

ما سبق الإشارة إليه في المرحلة السابقة استمر هو صلب الحياة الثقافية للمجتمع الغامدي والزهراني، وبعد إنشاء المدارس النظامية واستقدام مدرسين من بلدان عربية عديدة، واقتناء الكتب والمواد الدراسية المختلفة، وتحديد مواعيد وأنظمة ولوائح للدراسة، بالإضافة إلى وجود بعض الفقهاء والمتعلمين القلائل في المنطقة وبخاصة من ورثوا كتب أو مكتبات من آبائهم أو أجدادهم، أو من سافروا لطلب العلم في القرن (١٢هـ/ ٢٠م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ / ٢٠م)، وتزايد بعض وسائل النقل والإعلام مثل: السيارات والراديو، وسهولة بعض الطرق مثل: الدروب الواصلة بين الباحة والحجاز

أربعة عقود إلى اليوم موضوع مهم وجدير بالدراسة . ويجب على مراكز البحوث الإنسانية والاجتماعية والتاريخية والعقدية في جامعاتنا السعودية أن تولي مثل هذا الجانب اهتماما كبيرا في بحوثها ودراساتها العلمية الأكاديمية. (١) تاريخ الحياة الثقافية العامة عند عامة الناس في منطقة الباحة، وبخاصة طبقات المجتمع الوسطى والدنيا موضوع جديد وجيد وجدير بالدراسة والاهتمام، حبذا أن نر أحد طلابنا فيدرسه كرسالة دكتوراه وبخاصة منذ النصف الأول من القرن (١٤هـ/ ٢٠م) .

وعسير وبيشة، كل هذا رفع من شأن المستوى الثقافي والمعرفي عند بعض الناس^(١).

ج- مرحلة الطفرة التنموية :

هذه المرحلة بدأت مع نهاية التسعينيات من القرن (١٤/٢٠هـ) واستمرت حتى اليوم، وكانت المرحلتان السابقتان قد أسستا القواعد الرئيسية للحياة الثقافية في المنطقة، وعند توفر الأموال في أيدي الناس، وتحسن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وتزايد أعداد المدارس والمؤسسات التربوية والتعليمية والأكاديمية، وازدياد أعداد الطلاب والمعلمين والمتعلمين في المنطقة، ومضاعفة الدولة جهودها من خلال الخطط الخمسية على تطوير الأرض والسكان، وكذلك وعي المواطن وحرصه على تطوير نفسه وأفراد أسرته، كل هذا زاد من مستوى الحياة الثقافية والعلمية في المنطقة حتى أصبحت قريبة من المناطق الرئيسية في المملكة العربية السعودية^(٢).

وهناك مؤسسات وروافد رئيسية أسهمت في تطوير الحياة الثقافية في المنطقة، ومنها ما يلي :

١. المكتبات أحد الشرايين الرئيسية لنمو وتطور الحركة الثقافية في المنطقة . فمنذ عام (١٤٢٧.١٤٣٤هـ/٢٠٠٦.٢٠١٣م) وأنا أتردد على منطقة الباحة وقد سمعت ورأيت عشرات المكتبات الخاصة والعامة مثل: مكتبات بعض البيوتات العلمية في القرنين (١٤١٣هـ/٢٠١٩م)^(٣)، والمكتبات الحكومية العامة في المنطقة، كالمكتبات العامة في الباحة، وبلجرشي، والمخوة، وقلوة، والمكتبات المدرسية^(٤)، ومكتبة الجامعة العامة

(١) تاريخ الحياة الثقافية العامة في منطقة الباحة من عام (١٣٥٠.١٤٠٠هـ/١٩٣٠.١٩٨٠م)، موضوع هام وجديد ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراه، ونأمل من إحدى طالباتنا أو طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد أن يكون موضوعاً لأطروحتها، أو أطروحته العلمية، وسوف يجد وينشر جديداً عن مثل هذا الموضوع .

(٢) دراسة تاريخ التنمية التي شهدتها منطقة الباحة منذ (١٤٠٠.١٤٢٤هـ/١٩٨٠.٢٠١٣م)، والتركيز على دور التنمية في تطوير الحياة الثقافية بالمنطقة موضوع مهم يستحق إلى أن يكون عنواناً لكتاب من عدة مجلدات . ونأمل من جامعة الباحة وبخاصة من الأقسام ومراكز البحوث المتخصصة أن تولي مثل هذا الباب اهتماماً كبيراً لأهميته وفائدته العلمية الحضارية .

(٣) سمعت من بعض الرواة عن عدد من المكتبات التي عرفتها المنطقة خلال القرنين (١٤١٣هـ/٢٠١٩م) مثل : مكتبات عبد الرحمن الغامدي، وآل منصور، وزهرة سعيد الأعمى، وساعد الغامدي، والبركي، وعلي المدني، والسلفية الريحانية وجميعها في سرة غامد . ومكتبات أخرى في تهامة وسرة زهران مثل: مكتبة عائلة السلولي في بلدة المخوة، ومكتبات أحمد وعبد الله ومحمد في قرى آل موسى وخيرة والقوارير في سروات زهران. نرجو أن نرى أحد الباحثين الجادين فيخرج لنا دراسة علمية مطولة عن هذه المكتبات وأصحابها وما قاموا به من إسهامات في نشر الثقافة في بلاد غامد وزهران .

(٤) لقد شاهدت وتجولت في أرجاء بعض المكتبات العامة في المنطقة وبعض المكتبات المدرسية مثل: مكتبة المعهد العلمي في الباحة وبعض الثانويات والمتوسطات في سروات غامد وزهران فوجدتها تحوي مئات وبعضها آلاف من المصادر والمراجع في علوم ومعارف عديدة . .

ومكتبات الكليات النسائية والرجالية، ومكتبات نادي الباحة الأدبي والنوادي الرياضية وفرع جمعية الثقافة والفنون في الباحة، ومكتبات أخرى عديدة في بعض المؤسسات الإدارية مثل: الإمارة، والمحافظات، وفروع بعض الوزارات في المنطقة مثل: العدل، والشؤون الإسلامية، والبلديات، والداخلية، والثقافة والإعلام وغيرها^(١). وإذا نظرنا في بعض المكتبات الخاصة منذ أوائل هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) حتى يومنا الحالي فهناك مئات المكتبات الفردية والمتنوعة في محتوياتها، وأحجامها وأماكنها، ومصادرها وطرق تصنيفها ومدى الاستفادة منها^(٢).

٢. الكثير من المؤسسات الإدارية والتربوية والعلمية والاجتماعية والثقافية في المنطقة لديها نشاطات ثقافية متنوعة تمارسها في حدود نطاقها الجغرافي، وأحياناً على مستوى المنطقة، أو المملكة، أو العالم العربي أو الإسلامي أو العالمي. ومن الأمثلة على ذلك إدارات التربية والتعليم أو الجامعة، أو النادي الأدبي، أو فرع جمعية الثقافة والفنون بالمنطقة لها نشاطات مختلفة تتدرج من داخل المدرسة أو الكلية أو مقر النادي الأدبي إلى خارج المنطقة وإلى خارج المملكة^(٣).

٢. من خلال تجوالنا في المنطقة في شهر ذي الحجة عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) شاهدنا بعض المناشط والروافد الثقافية في المنطقة مثل: إنشاء مركز الملك عبد العزيز الحضاري الذي تم إنشاؤه في مدينة الباحة، وهدفه نشر التنمية الثقافية والحضارية بين سكان المنطقة، وكذلك الغرفة التجارية الصناعية وفروعها في المنطقة فهي الأخرى ذات نشاط حضاري ثقافي اقتصادي اجتماعي هام، ومركز تلفزيون وإذاعة الباحة، وما يصل

(١) منذ عام (١٤٢٧-١٤٣٤هـ/٢٠٠٦-٢٠١٣م) زرت بعضاً من هذه المكتبات مثل: مكتبة الجامعة العامة، والنادي الأدبي، وبعض النوادي الرياضية مثل: نادي السراة فوجدتها تضم آلاف الكتب العربية، والأجنبية وبخاصة في مكتبة الجامعة العامة، وعشرات المعاجم والموسوعات والدوريات .

(٢) خلال السنوات الماضية زرت عشرات الأساتذة والأسرة في منطقة الباحة (تهامة وسراة) ومنهم من يعود نسبه في غامد وزهران، وآخرون من خارج المنطقة الغامدية والزهرانية وأحياناً من خارج المملكة العربية السعودية، وأولئك الأساتذة وبعض أفراد الأسر التي زرنا جميعهم أصحاب شهادات عليا تتراوح بين درجة البكالوريوس إلى درجة الدكتوراه في تخصصات عديدة . وبعضاً من حملة الدكتوراه كانوا على درجات مختلفة من أستاذ مساعد إلى درجة أستاذ، وجميعهم يمتلكون مكتبات كل في مجال تخصصه، فالطبيب مثلاً تجد جل مكتبته في الطب، والمؤرخ، أو اللغوي أو القاضي وغيرهم كل في مجال تخصصه، وأستطيع القول أن معظم الأسر في منطقة الباحة اليوم يفتنون مكتبات تتراوح محتوياتها كل حسب طاقته واهتمامه من كتب عديدة إلى مئات وربما آلاف العناوين.

(٣) عندما زرت منطقة الباحة في عامي (١٤٣٠، ١٤٣٣هـ/٢٠١٠، ٢٠١٢م) واطلعت على نشاطاتها وندواتها ومؤتمراتها العلمية والثقافية وجدتها بالعشرات خلال العشر سنوات الماضية، ووجدت منها المحلي والإقليمي والعالمي، وهذا يدل على الحراك الثقافي الجيد الذي تعيشه المنطقة، وإذا نظرنا إلى نشاطات أي منطقة أخرى في البلاد السعودية وجدناها تعيش الوضع نفسه، وهذا مما يدل على ازدياد الحراك العلمي والثقافي الذي تعيشه البلاد السعودية خلال الثلاثين سنة الماضية . ودراسة الحياة الثقافية والعلمية والفكرية في البلاد السعودية في العصر الحديث والمعاصر موضوع هام وكبير ويحتاج عشرات بل مئات الدراسات العلمية الأكاديمية .

إلى هذه البلاد من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة كلها بدون شك أسهمت في نشر الوعي الثقافي وتطويره عند الأفراد والأسر والمجتمعات في المنطقة، كذلك التقنية الحديثة أسهمت في توسيع دائرة الفكر والثقافة في الديار الزهرانية والغامدية فهناك مواقع ومنديات وصحف إلكترونية عديدة، بل إن وسائل التقنية الحديثة أصبحت في متناول جميع شرائح المجتمع وهي تحمل كما هائلا من الفكر والعلم والثقافة المحلية والإقليمية والعالمية^(١).

٤. التآليف والطباعة تعد من أهم روافد الحياة الفكرية والثقافية في أي زمان

ومكان. وإذا بحثنا عن هذا الجانب في المجتمع الغامدي والزهراني وجدنا له ذكر وتطور ففي القرون الماضية المتأخرة عثرنا على بعض الوثائق والمدونات والمخطوطات التي تم تدوينها وحفظها عند بعض الفقهاء أو البيوتات العلمية في المنطقة^(٢). ومنذ نشأة التعليم النظامي في هذه البلاد، وقدوم بعض المعلمين الوافدين من بلدان عربية أخرى ظهر بعض الرسائل والمذكرات والنصوص المكتوبة عن المنطقة، وغالبيتها كانت من نتاج بعض أولئك المعلمين المتعاقدين^(٣). أيضا إنشاء المؤسسات الإدارية في المنطقة، ثم عمل بعض المعلمين القادمين من خارج المنطقة بها^(٤)، وكذلك ظهور بعض الرواد في العلم والتعليم الحديث من أهل المنطقة كل هذا أسهم في تدوين العديد من المدونات أو الكتب والمطبوعات، وقد اطلعنا على فهارس مكتبات جامعات الباحة، وأم القرى، والملك عبد العزيز، والملك سعود، والإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومكتبة الملك فهد الوطنية، ومكتبة الملك عبد العزيز العامة، ومكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومكتبة دارة الملك عبد العزيز، ومكتبة نادي الباحة الأدبي، ومكتبة الحرم المكي في مكة المكرمة من أجل معرفة ما

(١) هذه التقنية الحديثة سلاح ذو حدين فقد وصلنا عن طريقها ثقافات متنوعة في المحتوى والأهداف، ومنها السلبية والإيجابي، وشريحة كبيرة من الناس اليوم يقضون أوقاتا طويلة في الاطلاع على ما تنقل وتبث، ونسأل الله عز وجل أن يهدينا ويهدي جميع المسلمين إلى خيرها ويصرف عنا شرورها، آمين يارب العالمين .

(٢) لقد عثر الباحث على عدد من هذه المصادر العلمية والثقافية وجميعها تدور في الجوانب المعرفية الإنسانية والأدبية، ونأمل أن تقوم إمارة أو جامعة الباحة بإنشاء مركز علمي ثقافي يجمع فيه جميع الوثائق والمخطوطات والمذكرات التي تتعلق بمنطقة الباحة منذ فجر الإسلام حتى وقتنا الحاضر . وهذا مشروع علمي ثقافي حضاري يخدم هذه البلاد في الحاضر والمستقبل .

(٣) لقد عثر الباحث على بعض القصائد الشعرية والرسائل والمذكرات التي دونها بعض المدرسين عن منطقة الباحة منذ الخمسينيات إلى تسعينيات القرن الهجري الماضي ونأمل نشر بعضها في كتب أو بحوث قادمة (بإذن الله تعالى) .

(٤) أفراد دراسة عن الوافدين من خارج المنطقة للتدريس أو العمل في مجالات حضارية عديدة منذ الأربعينيات إلى تسعينيات القرن الهجري الماضي، مع الحرص على دراسة التأثير والتأثر بين أولئك الوافدين وأهل المنطقة موضوع هام وجدير بالدراسة ويستحق أن يكون عنوانا لكتاب أو رسالة علمية، ونأمل أن نرى أحد الأساتذة الأكاديميين في جامعة الباحة فيتولاه بالبحث والدراسة والتحليل .

تم تدوينه عن منطقة الباحة في شتى المعارف والعلوم، وكذلك معرفة إسهامات أهل المنطقة وبخاصة المتعلمين والمثقفين والأكاديميين منهم فوجدت مئات البحوث والدراسات والكتب في اللغة والأدب، والتاريخ والجغرافيا والرحلات، والنبات، والبيئة، والأنساب والقبائل والمعاجم والأعلام والتراجم، كما وجدت العديد من الدراسات العلمية الأكاديمية في بعض العلوم العلمية الباحة مثل: الأحياء، والكيمياء، والطب، والفيزياء وغيرها^(١)، وهذا يدل على أن منطقة الباحة حظيت بجهود لا بأس بها في التدوين والتأليف من أبنائها وبخاصة في ميادين العلوم العلمية^(٢). ومن وسائل الثقافة في المنطقة صدور العديد من المجلات الورقية خلال الثلاثين سنة الماضية مثل: مجلة الباحة، وهي مجلة شائعة تصدرها الغرفة التجارية في الباحة، وكان أول عدد صدر منها في عام (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). ومجلة صحة الباحة التي تصدر من المديرية العامة للشؤون الصحية بالباحة، وصدور العدد الأول منها كان في عام (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، وجميع موادها المنشورة تصب في خدمة الارتقاء بمستوى الثقافة الصحية في المنطقة. ومجلة المنتدى التي يصدرها النادي الأدبي وتهتم بشؤون الأدب والثقافة والفكر في المملكة العربية السعودية، وفي منطقة الباحة، وفي العالم العربي، وصدور أول عدد منها في عام (١٤١٦هـ/١٩٩٥م). ومجلات ومنشورات أخرى عديدة تصدر من إدارات التربية والتعليم ومن بعض المدارس، ومن الجامعة، ومن بعض المؤسسات الإدارية في المنطقة

وإذا نظرنا إلى النشر الإلكتروني فهناك بعض الصحف التي تصدر من أو عن المنطقة، وهناك مواقع فردية وجماعية لبعض أبناء غامد وزهران، وليس هناك صحيفة يومية ورقية تصدر من هذه المنطقة، ونأمل أن نرى مثل هذه الوسيلة قريباً تصدر في هذه المنطقة العريقة بأرضها وسكانها.

(١) عثرنا على العديد من الرسائل العلمية في درجتي الماجستير والدكتوراه ومنها المكتوب باللغة العربية وأخرى باللغة الإنجليزية، وكثير منها تناقش موضوعاً أو موضوعات أدبية أو علمية في منطقة الباحة. حبذا أن يخرج من أبناء منطقة الباحة من يقوم بإخراج كتاب علمي في هيئة فهرس (بيلوجرافي) عن كل ما كتب عن منطقة الباحة في شتى العلوم باللغتين العربية والإنجليزية. ومن يفعل ذلك فإنه سوف يسدي إلى كل باحث وإلى أبناء المنطقة عمل رائد ورائع في محتواه وفي بابه.

(٢) كثير من هذه البحوث طبعت في مطابع محلية وعربية، وبعضها طبع في كتب أو مجلات إقليمية وعالمية، وعند سؤالنا عن المطابع في منطقة الباحة وجدنا مطابع محدودة في إمكاناتها وإنتاجها مثل: مطبعة دار المنار، ومطبعة دار الغامدي للطباعة، والمطابع الريحانية، وهناك بعض الزهرانيين والغامديين الذين يمتلكون مطابع خاصة في بعض مدن المملكة الكبرى مثل: جدة والرياض وغيرها. وجميع المطابع الأئمة الذكر تجارية، وطباعة الكتب اليوم أصبحت يسيرة وسهلة لتوفر مطابع كثيرة داخل وخارج المنطقة، وكذلك الطبع والنشر الإلكتروني الذي بدأ ينافس بقوة الكتب التقليدية.

٣. اللهجات :

إن تجوالنا في منطقة الباحة ومعرفتنا بسكان وأرض هذه البلاد منذ زمن طويل^(١)، لفت أنظارنا إلى بعض الأمور الخاصة بلهجات هذه البلاد ونورد أهمها في النقاط التالية :

- أ. إن لهجة بلاد الباحة من أقرب لهجات العرب إلى العربية الفصيحة، بل هي ضمن مناطق معقل الضاد في الجزيرة العربية^(٢).
- ب. تكاد تكون لهجة المنطقة واحدة في أنحاء المحافظات والمراكز والقرى والأرياف مع تباين طفيف بسبب تنوع بيئات البلاد^(٣)، وفي الوقت نفسه ينفرد سكان هذه البلاد ببعض الألفاظ والمصطلحات التي لا تستخدم إلا بين أفرادها^(٤).
- ج. بسبب السفر واختلاط أبناء المنطقة مع غيرهم، ووسائل الاتصال الحديثة كل هذا أثر على لهجات منطقة غامد وزهران، فتجد بعض اللهجات أو المفردات النجدية، بالإضافة إلى مفردات أجنبية مثل الإنجليزية وغيرها، ووجود عمالة كبيرة من الشرق مثل: الهند وباكستان وبنجلاديش والفلبين واندونيسيا وسرلنكا وغيرها جعلت أبناء المنطقة (نساءً ورجالاً) يسيئون للغتهم بتكسيروها والتلاعب في حروفها ومفرداتها من أجل إيصال ما يرغبون قوله إلى هذه العمالة الأعجمية^(٥).

- (١) الباحث هو من سكان محافظة النماص التي تبعد عن الباحة إلى الجنوب حوالي (١٥٠-١٨٠ كم)، ومجاورة منطقة الباحة لمنطقة عسير جعل سكان المنطقتين على اتصال حضاري دائم منذ عصر ما قبل الإسلام إلى يومنا الحالي، بل إن عموم سكان المنطقتين هم من أزد السراة . حبذا أن تجرى دراسات معمقة عن أرض وسكان هاتين المنطقتين منذ العهد الجاهلي إلى وقتنا الحاضر. وهذا العمل مسؤولية الباحثين والمؤرخين المنتمين لهاتين الناحيتين .
- (٢) دراسة اللهجات في جنوبي البلاد السعودية، أو في المنطقة التي أطلقنا عليها اسم (تهامة والسراة) من الموضوعات الهامة والغنية في مادتها العلمية، والجميل أنه يوجد فيها عدد من الجامعات السعودية الحديثة وكل جامعة يوجد بها كلية لغات وترجمة، وأقسام للغة العربية، وهذه الكليات والأقسام عليها مسؤولية كبرى تجاه لهجات المنطقة فتدرسها دراسات علمية أكاديمية موثقة، وهذا أقل واجب على هذه المؤسسات الأكاديمية، فنرجو أن تقوم بواجباتها تجاه أهل هذه المناطق (الباحة، وعسير، ونجران، وجازان، والقنفذة) . (والله من وراء القصد) .
- (٣) الذهاب في أرجاء سراة وبوادي وتهامة المنطقة لا يجد صعوبة في الحديث مع الناس والإخذ والعطاء معهم لغوياً، إلا أن هناك بعض الاختلافات في مخارج الأصوات، ومعاني بعض المفردات، وأحياناً تغير الحركات أو بعض الحروف لبعض الكلمات في نواح دون أخرى . انظر أمثلة أكثر في صفحات قادمة .
- (٤) نعم هناك كلمات أو عبارات يتميز بها أبناء منطقة الباحة، بل إن العارف بالمنطقة وأهلها يستطيع أن يميز أي فرد غامدي أو زهراني عندما يتكلم من خلال لهجته ومفردات لغته انظر أمثلة في صفحات تالية .
- (٥) هذه ظاهرة عند عموم سكان الجزيرة العربية بل عند جميع سكان العالم العربي الذين يتعاملون مع هذه العمالة الآسيوية الأعجمية، وهذه التعاملات الاجتماعية أثرت كثيراً وسوف تكون تأثيراتها أسوأ وأعمق مع الأجيال القادمة من أبنائنا وأحفادنا، مع أن جيل الشباب اليوم يعيش مشكلة أخرى أدهى وأمر، وهي دخول وسائل التقنية وما تحمله من لهجات وعبارات سيئة وحسنة، وهذا الجانب التقني وإفراط الشباب في استخدامه دون تعقل ودون معرفة الفث من السمين سوف يكون له عواقب وخيمة على الفكر واللهجة واللغة والقيم وغيرها . ويجب على الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية المتخصصة أن تدرس هذه الظواهر وتعمل جادة على إيجاد حلول جيدة تصب في خدمة الدين والأخلاق واللغة والمبادئ والقيم السامية .

د - المتأمل في لهجات المنطقة خلال النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، والعقد الأول من هذا القرن (١٥هـ/٢٠م) وبخاصة ما كان مستعملاً في الأسواق المحلية الأسبوعية وفي مهن الرعي والصيد والجمع والالتقاط والزراعة والتجارة والحرف الصناعية التقليدية، وفي بعض النشاطات الاجتماعية مثل: الاحتفالات، والأعياد، وصور التعاون والتكافل والتأزر نجد الكثير من المفردات أو اللهجات المستخدمة في هذه الميادين المختلفة قد تلاشت وكثير منها ضاع واختفى، وهذا مما سوف يسبب فجوة كبيرة بين الأجيال السابقة واللاحقة، بل إن أجيال المستقبل سوف تكون جاهلة تماماً بالإرث اللغوي الذي عاشه آبائهم وأجدادهم^(١).

هـ - مما شاهدناه وسمعناه بعض الفوارق البسيطة بين لهجات المنطقة، فلهجة البادية في الشرق أشبه بلهجة البدو عامة وخاصة قبائل سبيع والبقوم وأكلب وبالحرث وغيرها^(٢). أما لهجة تهامة والأصدار في الغرب فهي أشبه بلهجات باقي تهامة وبخاصة ما حولها من قبائل العرضيتين الشمالية والجنوبية وزبيد والأشراف بمنطقة القنفذة^(٣). ولهجة جنوب سرورات المنطقة مثل: قبائل بالشهم وبنو ميمون في وادي شري فهي أقرب إلى لهجات خثعم وعليان وشمران وبلقرن^(٤)، أما لهجة باقي سرورات المنطقة من مدينة بلجرشي جنوباً إلى محافظة القرى في زهران شمالاً فتكاد تكون متشابهة مع فروق طفيفة بين لهجة سكان الأشعاف، ولهجات أهل الأودية والأسواق والحواضر الكبيرة^(٥).

(١) وإذا اختفى الموروث اللغوي الذي عرفه الآباء والأجداد فهذا سوف يؤثر على أدب وثقافة وقيم ومبادئ الأجيال القادمة . وبتأدي من على صفحات هذا الكتاب ونحث الجامعات والمؤسسات العلمية والأكاديمية، والجهات والمؤسسات المختصة أن تجمع وترصد موروث الأوائل اللغوي والثقافي والحضاري وتحفظه وتدونه للأجيال القادمة . كما نتادي بإنشاء نوادي ومتاحف ومراكز حضارية تحافظ على تراث الأوائل في شتى الجوانب، ومن يفعل ذلك فسوف يسدي لأهله وبلاده كنوز ثقافية وحضارية جيدة، بل سوف يحفظها من الخراب والانقراض (والله من وراء القصد).

(٢) قبائل سبيع والبقوم وأكلب وبالحرث مجاورة لمنطقة غامد وزهران من الشرق والشمال الشرقي . وهذه القبائل تميل لهجاتها إلى لهجة البدو في الأنفاظ ومخارج الأصوات وغيرها، وهذه البلاد جديرة بالبحث والدراسة وهي مسؤولة أقسام اللغة العربية في جامعتي الطائف والباحة، ونأمل أن نرى في هذه الأقسام بحوث علمية لغوية عن هذه الأوطان الجديرة بالبحث والدراسة .

(٣) منطقة تهامة من مكة المكرمة إلى القنفذة وجازان جديرة بدراسة تراثها اللغوي والحضاري . للمزيد انظر ابن جريس، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون، ص ١٥٩ وما بعدها، المؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) ج ٢، ص ٢٢١ وما بعدها، المؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير وجازان والقنفذة)، ج ٤، ص ٢٦ وما بعدها .

(٤) هذه القبائل هي في الأجزاء الشمالية من منطقة عسير، ولها خصوصية في بعض الأصوات والمفردات ومخارج الأصوات، وهي الأخرى جديرة بالبحث والدراسة . ونأمل من أقسام اللغة العربية أو كليات اللغات في جامعتي الملك خالد والباحة أن تتضافر جهودها في دراسة لهجات منطقتي الباحة وعسير وهذا ميدان جدير بالاهتمام من أصحاب الاختصاص .

(٥) سرورات منطقة الباحة جديرة بدراسة لهجاتها ولغاتها وسوف نورد في سطور قادمة بعض الأمثلة القليلة لبعض المفردات ومعانيها في هذه البلاد .

من خلال تتقلنا في جنوب سرورات المنطقة وبخاصة عند قبائل بني ميمون وبالشهم وجدنا من يقلب ال التعريف إلى ميم فيقال = الرجال : أم رجال، والجمل = أم جمل وهكذا^(١)، وهناك من يقلب الكاف إلى جيم مشربة بشين فيقال: بيتك = بيتج، وعمك = عمج، وفي بعض النواحي من محافظة بلجرشي يحدث لبعض المفردات تقديم وتأخير في حروفها، وهذا يسمى القلب المكاني فمثلاً كلمة سروال تقلب إلى رسوال، وحذا تنطق وحذب^(٢)، وقد سمعنا أن نون الأفعال الخمسة في كل حالاتها ترفع وتنصب وتجرم عند غالبية سكان المنطقة، أما جنوب بلجرشي، وفي قبائل بالشهم تحديداً، فتجدهم يحذفون النون من هذه الأفعال فمثلاً كلمة تقومون، أو لا تقومون يلفظونها تقوموا أولاً تقوموا وهكذا، وفي عموم المنطقة ينطق السكان (أبو، أخو) بالألف والهمزة مثل: أبو سعيد، أبو محمد، أبو علي. أما في بلاد بالشهم من محافظة بلجرشي فيحذفون الألف والهمزة مثل: بو سعيد، بومحمد، بو علي، وقد حصرنا بعض المفردات في محافظة بلجرشي فوجدناها تختلف من مكان لآخر في النطق والمعنى ونذكر أمثلة من ذلك في الجدول التالي:

م	بلجرشي وما جاورها شمالاً	جنوب بلجرشي (بالشهم)	المعنى
١-	نحو، ندر	دعب، ديح	نزل
٢-	سُفَان	بثور	أولاد
٣-	أَلْمَح - تَلْمَح	تَخِيل	انظر
٤-	الثمالة	الحدة	الجدار الصغير
٥-	شَمَطَة	شَنْطَة	حقيبة
٦-	مُصَاق	بُصَاق	بصاق
٧-	رسوال	سروال	السروال
٨-	غَمَص	صَمَع	اللبان أو العلك
٩-	حَقِيْنَه	لَبْنَة	لبن
١٠-	وَيّ ذابك	ماذا بك، وراك	ماذا دهاك
١١-	وش معك	وش بك	مابك
١٢-	دُرْوِيهَا	مَدْرِيهَا	مرجيجا (أرجوحة)
١٣-	حَجَر	حَيْد	حَجَر
١٤-	ذِيَايَة	ذِيَة	هذا
١٥-	تروحوون	تروحووا	تروحوون

(١) هذه لهجة قديمة في اليمن وعند بعض سكان منطقة تهامة والسرارة، ولا زالت مستخدمة حتى اليوم . مشاهدات الباحث في نجران وعسير وجازان والقنفذة والباحة خلال السنوات الماضية المتأخرة .

(٢) هذا ما سمعه الباحث أثناء تجواله في محافظة بلجرشي في الأيام الأولى من شهر ذي الحجة عام (٢٠١٢/هـ ١٤٣٣م) .

م	بلجرشي وما جاورها شمالاً	جنوب بلجرشي (بالشهم)	المعنى
١٦.	عرفتوك	عرفتك	عرفتك
١٧.	هنيابه، وهنأ، وهنه	هنياً وهنيه	هاهنا
١٨.	ذبّ تجون	بتاجوا	سوف تأتون
١٩.	محمّد	محمّد	محمّد
٢٠.	الحيلة	الملة	الأرض

وللمنطقة بعض الخصوصية في بعض المفردات والعبارات، فعلى سبيل المثال كلمة ذب أي سوف، فمثلاً ذب نمشي = سوف نمشي . جاء غويره بمعنى جاء يسعى . وفي سروات المنطقة من يقبل الجيم ياءً فيقول للجمل = اليمل، بلجرشي = بليرشي، الرجال = الريال وهكذا . وفي بعض نواحي المنطقة من يقبل الجيم قافاً كاللهجة المصرية فيقول جرب = قرب، وهناك من يقبل الواو ألفاً فيقال عوضه = عاضه، وهي إمالة إلى الفتح، وقد تقلب التاء كافاً فيقال: أنت = إنك وهذه من لهجة حمير^(١) . وعرف عند سكان المنطقة ما يمسى بالإشباع في العربية مثل: أنا عرفتها بمعنى أنا عرفتها، إشباع الضمة إلى الواو، أنت عرفتها بمعنى أنت عرفتها، إشباع الفتحة إلى الألف، وعلى هذا قس: أخذتها = أخذتها، أخذناها . سمعتوك = سمعتك، سمعناك... وهكذا^(٢) .

وفي سراة غامد وزهران عندهم ضم آخر الكلمة في حالة الرفع عند التوقف، وعندما تنطق الكلمة كان في آخرها واوا . مثلاً بيت = تسمع من ينطقها بيتو . رز = رزو وهكذا، وفي بوادي غامد يقبل أحياناً الكاف سينا مثل: بيتك = بيتس . جيدك = جيدس . وفي بعض نواحي المنطقة تحذف ال التعريف مثل: البيت = آبيت . السيارة = آسيارة . أو اس = آس^(٣) .

سادساً : الخاتمة - نتائج وتوصيات :

في الأيام العشرة التي قضيناها في التجوال في ربوع منطقة الباحة، استطعنا أن نخرج بعدد من الرؤى والنتائج والتوصيات التي ندرجها في النقاط التالية :

أ. عراقة أنساب وتاريخ وحضارة هذه البلاد، وقد شاهدنا ذلك في تقاسيم وجوه أهلها وفي طباعهم وأعرافهم وكرمهم وحبهم لمؤانسة الأجنبي والغريب، كما لمسنا ذلك

(١) لهجات منطقة السراة خليط من لهجات الأزدي وحمير ومذحج وبعض قبائل الحجاز مثل: هذيل وهوازن وثقيف وغيرها . ودراسة لهجات هذه المنطقة تحتاج إلى جهود جبارة من الباحثين والمؤسسات الأكاديمية في المنطقة وبخاصة كليات وأقسام اللغة العربية . ونأمل أن نرى بحوثاً عملية رصينة في هذا الميدان .

(٢) هذا ما شاهدته وسمعه الباحث أثناء تجواله في المنطقة في الفترة من (٢٩/١١ - ٩/١٢/١٤٣٣هـ) .

(٣) ما تم الإشارة إليه في هذه الجزئية الخاصة باللهجات فقط أمثلة ونماذج، مع أن منطقة الباحة غنية بمفرداتها ولهجاتها وتحتاج إلى دراسات عديدة منذ العصر الجاهلي إلى اليوم، ومن يقم بخدمة مثل هذا الموضوع علمياً وأكاديمياً فسوف يسدي لنا معاشر الباحثين وسكان منطقة الباحة معروفاً كبيراً، ولن يجرمه الله عز وجل من الأجر والثوبة (بإذنه تعالى) .

في قراهم ومنازلهم وأسواقهم الأسبوعية وطرقهم القديمة، وإذا انتقلنا إلى صور التمدن الذي تعيشه المنطقة حديثاً فمنها الإيجابي مثل: تطور التعليم، والاقتصاد، وأحوال الناس المعيشية، واتصال أهل البلاد بغيرهم من سكان المملكة وغيرهم من خارج البلاد، أما السلبية فهي الأخرى عديدة مثل: ضعف الروابط الاجتماعية في التكافل والتعاون، واتساع نظام الحياة على الفرد والأسرة والمجتمع، والتفاوت في أحوال الناس الاقتصادية وغيرها. ب. إذا نظرنا إلى نظام التربية والتعليم والثقافة والفكر والتنمية بشكل عام، وجدنا المنطقة تعيش في طفرة حضارية لا بأس بها من حيث تزايد عدد السكان، وتزايد عدد المراكز الحضارية الإدارية والتجارية والتنمية، بل إن إنسان اليوم أصبح في وضع حضاري متمدن أحسن مما كان عليه جيل الآباء والأجداد، لكن مبادئ وقيم وأخلاقيات الأوائل كانت أكثر متانة ورسوخاً وصدقاً وثباتاً من جيل يومنا الحاضر^(١)، وهناك بعض النتائج والتوصيات التي نذكرها على النحو التالي:

١. المنطقة إلى عهد قريب كانت ذات منتوجات وصادرات عديدة مثل: اللوز، والعسل، والحبوب، والمواشي، والعنب، والرمان وغيرها. وقد انقرضت اليوم وتلاشت جميع هذه الصادرات، وأصبحت البلاد معتمدة على الاستيراد من داخل وخارج المملكة العربية السعودية^(٢). والواجب على المؤسسات الإدارية المعنية وأعيان ووجهاء وأغنياء المنطقة أن يبحثوا عن بدائل اقتصادية استثمارية مثل: فتح بعض المشاريع الاقتصادية التي تخدم الفرد والمجتمع على حد سواء، كما يجب أن تكون هناك دراسات ومشاريع سياحية جيدة تعود على المنطقة بعوائد مادية واقتصادية جيدة^(٣).

٢. تغص المنطقة بعشرات المواقع التراثية الأثرية مثل: القرى القديمة، والأسواق الأسبوعية، والحصون والقصور الأثرية، والطرق، والمدرجات الزراعية، والأودية والجبال التاريخية، والرسومات والنقوش والآثار، والآبار، والمقابر وغيرها، وجميع هذه المصادر التراثية لازال الكثير منها ماثلاً للعيان، لكنها في طريقها إلى الخراب والدمار، والواجب على الإمارة والمحافظات، والجامعة، ومؤسسات التربية والتعليم،

(١) من يجري دراسة مقارنة عن مبادئ وأخلاقيات وقيم وصفات الفرد والمجتمع قديماً وحديثاً فإنه سوف يجد بونا شاسعاً وفروقاً جلية بين الماضي والحاضر. فالحياة المادية اليوم طغت بشكل كبير على سلوكيات الناس، ومن ثم تراجعت الصفات الأخلاقية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع الأمة. وجامعات جنوبي البلاد السعودية عليها مسؤولية عظمى تجاه دراسة الماضي والحاضر واستخلاص الفوائد والعبر والدروس، وهذا لن يتوفر إلا بفتح مراكز بحوث علمية تخدم مثل هذا الجانب، وطلب كوادر علمية مدربة صادقة ونزيهة تتولى مثل هذه المشاريع الهامة والمفيدة.

(٢) هذا ما شاهدناه وسمعناه وقرأنا عنه في بعض الكتب والوثائق والمذكرات، وتاريخ منطقة الباحة الاقتصادي خلال النصف الثاني من القرن (١٤/٢٠م) يستحق أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراه.

(٣) تجولت في بعض الأماكن السياحية في البوادي والسهول والسهول ووجدت مواقع جغرافية مؤهلة للسياحة مثل: الغابات، والجبال، والطرق، والأسواق، والقرى الأثرية وغيرها، لكن الخدمات والعوامل المساعدة للسياحة مثل: الفنادق والشقق المفروشة، ودورات المياه، والأسواق والحدائق والملاهي في الأماكن السياحية، ومراكز للإرشاد السياحي وغيرها تكاد تكون معدومة، وإن وجد بعضها في المدن الكبرى مثل: الباحة وبلجرشي وغيرها فتجد أسعارها عالية، بل إنها لاتصل إلى مرتبة الجيد في الجودة والخدمة. مشاهدات الباحث في الفترة من (١١/٢٩ - ١٢/٩/١٤٢٣هـ).

والهيئة العليا للسياحة والوجهاء والأغنياء من أهل المنطقة أن يقوموا بمسؤولياتهم تجاه هذا التاريخ المشرق فيحافظوا على هذا الموروث الحضاري، وإن فعلوا ذلك فهو من باب الواجب عليهم، ثم إنهم سوف يحفظون لأبنائهم وأحفادهم تاريخ آبائهم وأجدادهم خلال القرون والعقود الماضية^(١).

٣. أما التنمية العمرانية، فالواقع أن المنطقة تعيش مرحلة تطور جيد، لكن لازال هناك العديد من الجوانب التي تحتاج إلى تطوير أفضل، مثل: زيادة الطرق المعبدة بين المحافظات والمراكز الرئيسية، وحبذا أن تكون طرقاً مزدوجة، كما أن بعض القرى والبادي والأرياف لازالت بحاجة إلى طرق جديدة. أما مطار الباحة فطاقته محدودة، ويحتاج إلى توسيع في مدرجاته وأبنيته وخدماته، كما أن الجزء التهامي مع منطقة القنفذة يحتاج إلى مطار آخر كي يخدم مئات الآلاف من السكان^(٢). والمدن والحوضر الرئيسية في المنطقة (تهامة وسراة) تحتاج إلى تخطيط أفضل في شوارعها وأسواقها وخدماتها ومؤسساتها الإدارية، وبعض الطرق الرئيسية التي تربط أطراف المنطقة مع بعضها البعض، بل تربط المنطقة مع مناطق أخرى تحتاج إلى زيادة خدمات في محطاتها واستراحاتها وغيرها^(٣).

٤. منطقة الباحة داخلية بالنسبة لمناطق مكة المكرمة وجازان وعسير، وهذه المناطق الثلاث الأخيرة لها منافذ طبيعية على البحر الأحمر، ومنطقة الباحة حسب مساحتها الجغرافية الكبيرة وعدد سكانها الكبير فإنها هي الأخرى تحتاج إلى منفذ بحري، وهذا مما سيعود على أهلها بفوائد اجتماعية واقتصادية عديدة، حبذا أن يدرس هذا الموضوع من قبل المسؤولين في الدولة، وحبذا أن يطالب سكان منطقة الباحة بهذه الخدمة، ونأمل أن يتحقق كل ما فيه خير وصلاح للبلاد والعباد^(٤).

٥. لازالت منطقة الباحة بحاجة إلى العديد من المحاضن والمؤسسات الثقافية والتعليمية، فالجامعة عليها دور أكبر بزيادة فروعها وفتح كليات ومؤسسات أكاديمية في جميع محافظات المنطقة، والنادي الأدبي وجمعية الثقافة والفنون عليهما أيضاً مسؤوليات أعظم فتضاعف نشاط هاتين المؤسستين وتزيد فروعها بالمحافظات الكبرى في

(١) شاهدنا عشرات النقوش والرسومات الصخرية التي يرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل الإسلام، وهناك قرى وحصون وطرق ومدرجات يعود تاريخها إلى مئات السنين. كما أن هناك بعض المخطوطات والوثائق الموجودة عند بعض الأسر وبيوتات العلم القديمة. وكل هذا التراث يحتاج إلى حفظ ورعاية وتوثيق وتدوين، وهذه مسؤوليات المؤسسات الأكاديمية، لكن لا بد من توفر دعم معنوي ومادي من الجهات المسؤولة ومن الأغنياء وأصحاب الثراء في المنطقة.

(٢) منطقة تهامة من مكة المكرمة إلى جازان تحتاج إلى أكثر من مطار للكثافة السكانية العالية في هذه المنطقة، وللحاجة الشديدة والملحة إلى مثل هذه المشاريع التنموية الحضارية. هذا ما شاهدته الباحث ولمسه أثناء تجواله في هذه البلاد منذ عدة سنوات.

(٣) هذا ما لمسها الباحث أثناء تجواله في المنطقة في الفترة من (٢٩/١١-٩/١٢/١٤٣٣هـ).

(٤) منذ عقود عديدة وأنا أتجول في أرجاء المنطقة الجنوبية، وهذا ما لمست أثناء المشاهدة والخبرة والسير في مناكب تهامة والسراة، ونقول إن منطقة الباحة بحاجة إلى البحر، ولو ضمت منطقة القنفذة مع منطقة الباحة حتى تصبح منطقة واحدة، فهذا قد يرفع ويزيد من تنمية وتطوير المنطقتين.

- المنطقة، ويكون الباب والتشجيع مفتوحاً وميسراً لكل مثقفي ومتقنات المنطقة، ولا تكون خدمات مثل هذه المراكز محصورة في ناحية أو مدينة أو شريحة محدودة^(١).
٦. على صفوة أهل العلم والأدب والفكر والثقافة من بلاد غامد وزهران وخاصة المقيمين خارج منطقة الباحة أن تكون لهم إسهامات مباشرة على أرضهم وأهلها فيكونوا على اتصال دائم بحراكها الثقافي والعلمي والفكري، بل عليهم أن يسهموا من خلال تخصصاتهم وعلومهم وخبراتهم بما يخدم أوطانهم معرفياً وحضارياً. كما أن صناع القرار وطبقة الفكر والثقافة والعلم داخل المنطقة عليهم أيضاً مسؤوليات كبيرة فيكونون على اتصال دائم بإخوانهم وبني جلدتهم من أهل العلم والفكر والأدب خارج المنطقة، ويتعاون الفريقان في كل ما يعود بالخير والفائدة على ديارهم وأهلها، وعلى الجميع أن يبذلوا قصارى جهودهم لاستجلاب بعض المناشط العلمية والفكرية والثقافية إلى بلادهم مثل: معارض الكتاب الإقليمية والدولية، والندوات والمؤتمرات العلمية والفكرية، وبعض المناشط الدعوية والاجتماعية والاقتصادية والتطوعية وغيرها^(٢).
٧. هناك العديد من القضايا التي يجب على أهل الرأي والقرار والوعي السليم في المنطقة الانتباه إليها مثل: تشجيع الهجرة العكسية لأبناء المنطقة من المدن الكبرى إلى مدنهم وحواضرهم في منطقة الباحة، مع الحرص على توفير الخدمات الهامة والضرورية لهم ولغيرهم من سكان البلاد^(٣)، حبذا أن يشجع فتح المجالس والمنتديات (الصوالين) الأدبية والثقافية في المنطقة، وهذا سوف يساعد على تنمية الوعي والثقافة والفكر عند الناس، كما يجب فتح مراكز اجتماعية رياضية ثقافية وينشر من خلالها الوعي الثقافي البناء مثل: الحفاظ على مقدرات البلاد وتراثها وموروثها الحضاري، ومحاربة السلوكيات الاجتماعية والأخلاقية الهدامة، ونشر الثقافة والأدب العفيف للفرد والأسرة والمجتمع^(٤).

(١) زرت منطقة الباحة عدة مرات، وحضرت عدداً من المناسبات الثقافية والفكرية، وجميعها تقام في مدينة الباحة، وعند ذهابنا إلى مدن ومحافظات أخرى قابلنا العديد من المثقفين وأرباب القلم، لكنهم في عزلة عما يحدث من حراك ثقافي في مدينة الباحة، ويجب على المراكز والمؤسسات نفسها أن تبادر وتشرك الجميع في مناشط الحياة الثقافية والأدبية والفكرية والتعليمية، وهذا العمل من أهم مسؤولياتها .

(٢) هناك عشرات المناشط المتنوعة في أطروحاتها وأهدافها على مستوى المملكة أو العالم العربي، وقد يستضاف بعضها على أراضي الباحة، واستجلاب مثل هذه النشاطات يعود بفوائد حضارية عديدة على البلاد وأهلها.

(٣) تطوير القرى والأرياف والمناطق النائية، وتوفير الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية وغيرها تعد من الأسباب التي تخلق هجرة عكسية من المدن الكبرى إلى المناطق والبلدان الصغيرة، وهذا ما تحتاجه منطقة الباحة ومثيلاتها من مناطق المملكة العربية السعودية .

(٤) في المجتمع كثير من المشاكل الاجتماعية والثقافية والحضارية، وإنشاء مراكز ونوادي تعالج مثل هذه القضايا يعد من الضروريات التي يجب على الدولة والمجتمع أن يعمل من أجل تأسيسها ورعايتها .